اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٤٦٩]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

نائب رئيس التحرير
منى خشبة

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف
منال بدران

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بن الشريف ، محمود .
الحب فى القرآن .
محمود بن الشريف .
- ط ٥٠ - القاهرة : دار المعارف ، (٢٠١٠) .
١٤٨ ص ؛ ١٧,٥ ٤ سم .
تدمك : ٠ - ٧٤٤٨ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١- القرآن - مباحث عامة .
أ- العنوان .

ديوى ٢٢٩

رقم الإيداع ١٦٧٠٨ / ٢٠١٠ ٣١/ ٢٠١٠ /١

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ - E-mail: maaref@idsc.net.eg

د. محمود بن الشريف

الحب فى القرآن

الطبعة الخامسة

دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة. والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

المحتويات

صفحة

بين يدى الكتاب ٩

حب الحب ١٧

الحبيب المحبوب ٢٣

مقامات الحب ٢٧

قالوا عن الحب ٣١

تساؤل .. ورأى ٣٨

الحب .. والوصل .. والمعيَّة .. والقرب ٥٧

وألقيت عليك محبةً منى ٦١

من أحب لقاء الله .. أحب الله لقاءه ٧٤

الودود ٧٨

لقاء حول الحب ٨١

غداً .. نلقى الأحبة ٨٤

حكايات عنهم ٨٧

ألوان من الحب ٩٧

تعالوا .. نعلمكم الحب ١٠٠

يحبهم .. ويحبونه ١٠٤

صفحة

كتب الحب الإسلامى ١٠٨
من مناجاة المحبين ١١٥
أهل الهوى ١٢٥
شراب الحب .. والكأس والساقى ١٢٨
فى محراب الحب ١٣١
شعراء الحب ١٣٨

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.
- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

(والذين آمنوا أشد حبًّا لله)

قرآن كريم

«اللهم : إنى أسألك حبك
وحبَّ من يحبك
وكلَّ عمل يقربنى إلى حبّك»

من مناجاة رسول الله ﷺ لمولاه العلى العظيم

بين يدى الكتاب

قد يقطّب إنسان ما بين عينيه حينما يسمع عن الحب فى القرآن . . وقد يشيح بوجهه ، وينأى بجانبه ، ويحوقل ويستعيذ من الموضوع وصاحبه ! !

وهؤلاء قليل ما هم ، بل هم من الندرة بمكان .

لأن الذى واتاه الله حظاً من المعرفة والعلم ، ونصيباً من الفهم والتذوّق لنصوص الإسلام من أيات قرآنية وأحاديث محمدية تتضح أمامه الرؤية ، ويعلم — فى يقين — أن الإسلام دين الحب وأن المؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا أحسّ حرارة الحب .

وعن ذلك يقول رسول المحبة والسلام رسول الإسلام علية أفضل الصلاة والسلام « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما . وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » . [رواه الشيخان : البخارى ومسلم]

وديننا الإسلامى أمرنا بالحب . . ودعانا إليه . . وأغرانا به . . وحضنا عليه ، يقول رسول الإسلام عليه أزكى صلاة وسلام « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا آل بيتى لحبى » .

[رواه الترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما]

وبهذا يدعو الإسلام إلى المحبة : محبة الله ، ومحبة رسول الله ، ومحبةالدين والعقيدة ومحبة الخلق . . كما جعل الله سبحانه المحبة بين الزوجين من آياته سبحانه ومن دلائل قدرته يقول تباركت أسماؤه : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لأيات لقوم يتفكرون)[1] .

فالحب سمة من سمات الحياة الروحية فى عقيدة المؤمن ، وعاطفة لها وزنها فى الجو الإسلامى – والمحيط الدينى والمجتمع العقَدىّ .

وما فرح المسلمون بشىء بعد فرحهم بكلمة التوحيد كما فرحوا بكلمة الحب . . جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : وماذا أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، إلا أنى أحب الله ورسوله . فقال عليه الصلاة والسلام : « المرء مع من أحب » .

قال أنس بن مالك – وهو راوى هذاالحديث الشريف : ما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام كفرحهم بذلك .

فرح المسلمون بأمر الحب ، وبالأمر بالحب ، وشغلهم مافرحوا به . . شغلهم الحب ولا غرو؟ فقد سمعوا رسول الله ﷺ عندما يناجى ربه يدعوه ويسأله الحب ، ويتوجه إليه متوسلا قائلا : « اللهم إنى أسألك حبك وحب من أحبك

(١) من سورة الروم آية ٢١ .

وحب ما يقربنى إلى حبك »[٢] .

والإيمان فى الإسلام قائم على المحبة ، ومؤسس على المودة . قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء إن فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم »[٣] .

فجعل دخول الجنة متوقفاً على الإيمان ، وجعل الإيمان متوقفاً على المحبة ، فالمحبة شرط فى الإيمان وركن فى العقيدة ، وأساس فى الدين .

والمحبة كذلك شرط فى استكمال الإيمان وتمامه : « من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان »[٤] فالإيمان : أساسه الحب ، وكماله بالحب ، وأوثق عراه الحب ، قال عليه الصلاة والسلام لأبى ذرّ : يا أباذر ، أىّ عُرى الإيمان أوثق ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال عليه السلام : « الموالاة فى الله ، والحب فى الله »[٥] .

وروى الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال « من أوثق عُرى الإيمان أن تحب فى الله وتبغض فى الله » . هذا هو الإيمان : قاعدته وركيزته حب ، وسنامه وذروته حب ، وبناؤه حب ، وتمامه وكماله وجلاله بالحب ، حب الله . . وحب رسول الله الذى يقول « لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده ومن نفسه التى بين جنبيه ومن الناس أجمعين »[٦] .

وقال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ : « يا رسول الله ، لأنت أحبّ إلىّ

---

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أبو داود عن أبى أمامة .

(٥) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس .

(٦) رواه مسلم وأبو هريرة عن ابن عباس .

من كل شيء إلا من نفسى ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا يا عمر حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك ، فقال عمر : والله يا رسول الله لأنت أحبّ إلىّ من كل شيء حتى من نفسى ، فقال عليه الصلاة والسلام : الآن يا عمر »[٧] .

وحبّ الخير للغير من كمال الإيمان ، قال رسول الإنسانية عليه أفضل صلاة وأتم سلام « لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقال « من سرّه أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله »[٨] .

ومن محبة المشرع الحكيم سبحانه تتبع محبة شرعه وشريعته ، ومحبة من نزلت عليه شريعته ومحبة كلامه سبحانه ، ومحبة من نزل عليه كلامه .

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)[٩] . أجل ، يحببكم الله . فالله سبحانه وتعالى يحبّ . . يحب من أحب دينه ، وكلامه ، ورسوله ، واتبع شريعته . .

يحب من أقبل عليه ، وأناب إليه ، وأخلص له ، وأطاع أمره وطرق بابه ، ولاذ إلى رحابه . .

يحب الذين يتسامون فى حبهم إلى الذروة بالتضحية والاستشهاد والجهاد فى سبيل الله وفى سبيل إعلاء كلمته ونصرة دينه (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص)[١٠] .

وقد صرّح القرآن الكريم فى عديد من آياته بهذا الحب ، فالمولى جلّت قدرته يحب التوّابين ويحب المتطهرين ، ويحب المحسنين ويحب الصابرين والمتقين ، وهو

---

(٧) أى : الآن كمل إيمانك . وهذا الحديث رواه الشيخان .

(٨) رواه الحاكم عن أبى هريرة .

(٩) آية ٣١ من سورة آل عمران .

(١٠) آية ٤ من صورة الصف .

سبحانه يُلقى محبته على من يحبه ، يقول تعالى لكليمه موسى عليه السلام : (وألقيت عليك محبةً منّى) .

والمؤمنون يحبون . . ومحبتهم الأقوى لله مصداقا لقول الله (والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله)[11] إنهم يحبون ويتقربون إلى مولاهم محبوبهم .

والحب تقرّب . . وعطاء . تقرب من المحب ، وعطاء من المحبوب ، عن هذا يقول الحديث القدسى « ما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحبّ الىّ مما افترضته عليه ، ومازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتّى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، ولئن استنصرنى لأنصرنه ، وماترددت فى شىء أنا فاعله كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولابد له منه » .

والحب فى الإسلام منهج له حدود . . وطريق . . ومعالم . . وقيود ، ومخطط تربوى إلهى سما بالعواطف ، وهذّب الأخلاق وشذّب الغرائز ، وقدّم لكل نفس ما يعصمها من الجنوح ، وما يمنعها من الزلل والانحراف ، وما يأخذ بيدها حتى تصير نفسا وضاءة مشرقة محبّةً محبوبة . . إن عالمنا اليوم الذى أوغل فى المادية ، وانحدر إلى مهاوى القلق والأثرة والأنانية . . إن قلبه المكدود الذى يفيض بالحقد والضغن وألوان الكراهية . . إنه فى حاجة إلى جرعات محبة ، ورشفات مودة تأسو الجراح وتغسل السخائم وتذيب الإحن وتزيل المحن ، وتبدّد الأثرة وتبيد الكره والأنانية .

ولعل الإنسانية اليوم فى صراعها المحموم وتكالبها المادى وجراحها الدامية . . لعل لها فى المحبة الإسلامية ما يأخذ بيدها إلى آفاق من الأمن والأمان والإيمان ،

---

(١١) آية ١٦٥ من صورة البقرة .

وأجواء من الإخاء والنقاء والوفاء .

وبذا تعود للإنسانية حياتها الروحية التى فقدتها وافتقدتها من آماد طوال . والمدنية الحديثة بضجيجها وعجيجها ومادياتها الشرسة وأوارها الملتهب وأنانيتها التى أورثت أمراضا نفسية وجسدية عزّ علاجها وندر تطبيبها – والطب الحديث بمبضعه ومعامله وأنابيبه قد تحيّر أمام هذه الأدواء والأوصاب ولم تستطع عقاقيره أن تصل إلى الأعماق لتزيل ما ترسب من آلام صبغت الحياة بلون قاتم ولونت النفس بلون أسود فاحم .

إن الحب بكل ما يحمله من معان ، وبكل ما يشيعه من أمان واطمئنان ، وبكل ما يشعه من رضا ومودة وسلام هو علاج للقلق المدنى . . وعلاج لإنسان المدنية . . إنسان العصر الحديث الذى فهم الحب على أنه حرية بلا حدود وانطلاق بلا قيود . . وفوضى بهيمية وإشباع غرائز حيوانية . . فانحدر وجرفه التيار إلى مهاوى من القلق والأنانية والاكتئاب والاضطراب . .

يرنو إلى الخلاص . . ولاخلاص له إلا فى الحب . . حب الحق . . حب النور . . حب السلام ، والله هو الحق ، وهو النور ، وهو السلام . .

إن كتاب الله قد تحدث عن الحب وأشار إليه وأشاد به .

وفى الصفحات التالية حديث القرآن عن الحب والود والمحبة والأحباب .

والله الموفق وهو المعين

الدكتور

محمود بن الشريف

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
سيجعل لهم الرحمن وُدًّا)

[سورة مريم آية ٩٦]

حُبّ الحب

الله هو النور هو الحق والعدل والخير والسلام

فمن أحب النور والحق والعدل والخير والسلام فقد أحب الله لأن الله هو الحب[1]

---

(١) أسماء الله تعالى توقيفية لا تتعدى الحديث الذى أحصى أسماءه الحسنى الذى قال فيه رسول الله ﷺ إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها وعدّها دخل الجنة ، ولكن الإمام النووى قال إن ذلك الحديث ليس فيه حصر أسماء الله تعالى فى هذا العدد ، وليس معناه أنه ليس له سبحانه اسم غير هذه التسعة والتسعين بل له أسماء غيرها . يؤيد ذلك ما ورد من حديث ابن مسعود أن النبى ﷺ دعا فقال : اللهم إنى أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك . . إلخ . وقال الإمام الخطابى : فى الحديث الأول إثبات هذه الأسماء المخصوصة بهذا العدد وليس فيه منع ما عداها من الزيادة وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها .

والمسلمون مأمورون بحب الله «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه».

وتوعّد سبحانه بالوعيد من شغلته محبة غير الله عن محبة الله ورسوله (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره)[٢].

وأنت أيها المؤمن ما أحببت شيئًا إلا كنت له عبدًا، وهو لا يرضى أن تكون لغيره عبدًا فالعبودية لا تكون إلا لله، إذ هو الإله المعبود، والعبادة له. والحب له.

ومن أحب الجمال كان حبه لله لأن الله جميل يحب الجمال..

ومن أحب الجلال فقد أحب الله فإنه ذو الجلال والإكرام.

والحب عبادة والعبادة تقوم على الخوف وعلى الرجاء.. وعلى المحبة.

يقول ذو النون: «إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله: فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله، فإذا سكنت درجة الهيبة دامت طاعته لربه، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء فإذا سكنت درجة الرجاء تولد من الرجاء المحبة، فإذا استحكمت معانى المحبة فى قلبه سكن بعدها درجة الشوق، فإذا اشتاق أدّاه الشوق إلى الأنس بالله، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله كان ليله فى نعيم ونهاره فى نعيم وسره فى نعيم وعلانيته فى نعيم».

قال ابن القيم فى «مدارج السالكين» جـ ١ ص ٩٩:

«أصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه».

والإمام ابن تيمية فى رسالته «العبودية» يقرر أن المحبة جزء لا يتجزأ من حقيقة العبودية مستدلاً على ذلك باللغة. وبالشرع قال: «ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل

(٢) من سورة التوبة ٢٤.

وكمال الحب ، فإنهم يقولون : قلب متيَّم إذا كان متعبداً للمحبوب ، والتتيم : التعبد ، وتيَّم الله : أى : عبد الله » .

ثم يقول : إنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه ، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة ، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه ، وتكمل محبة الرب لعبده . وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك . وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك .

وكل محبة لا تكون لله فهى باطلة . . وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله .

وكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله ، بل لا يكون لله إلا ما جمع وصفين : أن يكون لله وأن يكون موافقا لمحبة الله ورسوله » .

ثم يقول الإمام ابن تيمية فى موضع آخر من كتابه العبودية مقررا أن العبادة فى الشرع خضوع وحب يقول : « إن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له ، فإن آخر مراتب الحب هو « التتيم » ، وأوله العلاقة ، لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام ، وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق ، وآخرها : التتيُّم ، يقال : تيم الله ، أى : عبد الله ، فالمتيم : المعبَّد لمحبوبه » .

ثم يقول : « ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له ، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له ، يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء ، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شىء ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله » .

ونخلص بعد أن أوردنا هذه النصوص والأقوال نخلص إلى أن معنى حب الله ، هو أن يُقبل المرء على الله ويسلم وجهه وأمره ومقاليده وكيانه كله لله ، وأن يتوكل عليه ولا يسأل إلا إياه ولا يعتمد إلا عليه وأن يؤثر طاعته على النفس وعلى المال وعلى الولد والجاه وأن يكون هدفه الله وغايته الله كما قال الله . (قل الله ثم درهم فى خوضهم يلعبون) .

حب الله تحلية وتخلية يوصلان إلى التجلية . . تحلية للمؤمن بالطاعة والقيام بتكاليف الله على خير وجه وتخلية بها يتجرد العابد للعبادة بالتخلى عن كل ما يشينه كمؤمن وعن كل ما يشوب العلاقة بينه وبين ربه وبالتخلية والتحلية تكون التجلية . . والظهور . . والرعاية والعناية . . والعطاء .

والطاعة فى الوقت نفسه دليل وعلامة وأمارة على حب الله . فالمحب يطيع من أحب وينفذ أمره فى رضا وسعادة قال ابن المبارك :

تعصى الإله وأنت تُظهر حبَّه هذا لعمرى فى القياس شنيع
لوكان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وهكذا طريق المحبة . . أوله أمر إلهى . . ونهايته طاعة إنسانية .

وقد تضل أو تزل بعض الأفهام فى إدراك معنى الحب لله . . ! !

وقد يقولون إن الله – عزّ وجل – لا يدرك بالحواس ولا يُتمثل فى اخيال فكيف يُحب ؟ !

وغاب عن هؤلاء الذين بنوا أحكامهم على النواحى المادية فحسب غاب عنهم إدراك الأمور المعنوية والنواحى الروحية الوجدانية ؛ فالشرف والإنسانية والكرم والوطنية والأريحية . .

كل هذه أمور معنوية لا تجسيد ولا تجسيم لها فى الخارج . . فى دنيا الواقع ولكنها مع ذلك تُدرك وتُحب . .

قال الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء عند حديثه عن تحقيق معنى محبة العبد لله تعالى قال : إن البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، وأن القلب أشد إدراكا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار .

فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه .

وقال : إن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها والله سبحانه هو المحسن المنعم المتفضل (وما بكم من نعمة فمن الله) ، (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) ، (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)

ولعل رابعة العدوية : كما يقول الغزالى أرادت بحب الهوى عندما قالت :

أحبك حبين حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراك
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

لعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما .

ثم ينعى الإمام الغزالى على هؤلاء الذين أنكروا حب الله تحقيقا وجعلوه مجازا عندما قال : إن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ندَّ له الفرد الذى لا ضدّ له ، الصمد الذى لا منازع له ، الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا رادّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم

الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلى الذى لا أول لوجوده ، الأبدى الذى لا آخر لبقائه ، الضرورى الوجود الذى لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال ، والبهاء والجمال ، والقدرة والكمال الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول ، وتخرس فى وصفه الألسنة ، الذى كمال معرفة العارفين والاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم وعليه أجمعين : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : « العجز عن درك الإدراك إدراك . سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته » . فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا ؟!

الحبيب المحبوب

هو حبيب الله ومحبوبه . .

هو أول المسلمين ، وأمير الأنبياء ، وأفضل الرسل ، وخاتم المرسلين . .

هو الذى جاهد وجالد وكافح ونافح حتى مكّن للعقيدة السليمة النقية أن تستقر فى أرض الإيمان ونشر دين الله فى دنيا الناس ، وأخذ بيد الخلق إلى الخالق . .

هو الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، «أدبنى ربّى فأحسن تأديبى» وجمّله وكمّله (وإنك لعلى خلق عظيم) .

وعلمه (وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) .

وبعد أن رباه اجتباه واصطفاه وبعثه للناس رحمة مهداة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

وكان مبعثه نعمة ومنّة (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من

أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

هو للمؤمنين شفيع ، وعلى المؤمنين حريص ، وبالمؤمنين رءوف رحيم .

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

على يديه كمل الدين . وبه ختمت الرسالات .

هو سيدنا وحبيبنا وشفيعنا رسول الإنسانية والسلام والإسلام محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وسلام اختصه الله بالشفاعة ، وأعطاه الكوثر ، وصلى عليه هو وملائكته (إن الله وملائكته يصلون على النبي . يأيها الذين آمنو صلوا عليه وسلموا تسليما) صلى الله عليك يا سيدى يا حبيب الله ، يا رسول الله ، يابن عبد الله ورسول الله هو الداعية إلى الله . . الموصل لله فى طريق الله . . هو المبلغ عن الله . والمرشد إليه ، والمبيِّن لكتابه والمظهر لشريعته .

ومتابعة الرسول ﷺ من حبِّ الله فلا يكون محبًّا لله إلا من اتبع سنة رسول الله ؛ لأن الرسول عليه السلام لا يأمر إلا بما يحب الله ، ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به ، فمن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول ﷺ فيصدقه فيما أخبر ويتأسَّى به فيما فعل وبهذا الاتباع يصل المؤمن إلى كمال الإيمان وتمامه ويصل إلى محبة رسول الله ، وهل محبة الرسول إلا من محبة الله وطاعة الرسول من طاعة الله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية الشريفة : إن هـذه الآية الكريمة حاكمة على من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب فى دعواه فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » ولهذا قال الله : (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) أى يحصل لكم

فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول كما قال بعض الحكماء : ليس الشأن أن تحب ، إنما الشأن أن تُحبَّ .

وحبّ سنّة رسول الله ﷺ من حب رسول الله ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام : « من أحب سنتى فقد أحبنى ومن أحبنى كان معى فى الجنة » .

وسنة رسول الله ﷺ لها مكانتها ومنزلتها ، فرتبتها تلى رتبة القرآن ، فهى فى المنزلة الثانية بعد كتاب الله عز وجل توضح القرآن وتفسره وتبين أسراره وأحكامه ، وكثير من آيات القرآن جاءت مجملة ، أو عامة ، أو مطلقة ، فجاءت أقوال رسول الله ﷺ وأعماله كاشفة للمراد الإلهى وموضحة له عندما فصّلت المجمل ، أو قيدت المطلق ، أو خصصت العام[1] : (وأنزلنا إليك الذكر ، لتبين

---

(١) فالصلاة – مثلا – أمر المولى سبحانه فى القرآن بإقامتها فى أكثر من آية ، لكنه سبحانه لم يبين تفاصيلها ، ولا كيفيتها ، ولا أوقاتها ، وإنما أمر بها مجملة ، فجاءت سنة النبى محمد – عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات – فأبانت بطريقة عملية وقولية كيفية الصلوات وتفاصيلها وكل ما يتصل بها . وكذلك الأمر فى الزكاة أمر بها الشارع الحكيم أمراً إجماليا فصلته السنة النبوية ولما كانت هناك أوامر قرآنية مجملة ، كقطع يد السارق وجلد الزانى وكانت هناك نواهٍ قرآنية كقوله تعالى (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) ورد هذا النهى مجملاً أيضًا ، فما المراد بالخمر ؟ وأى المقادير يحرم ؟ وما هو الحد الذى يقام على الشارب ؛ كل هذا فصلته سنة المصطفى ﷺ .

كذلك جاء القرآن بنهى عام (حُرّمت عليكم الميتة والدم) هذا النهى العام خصصته السنة وأخرجت من ذلك النهى واستثنت منه : السمك والجراد والكبد والطحال . قال عيله الصلاة والسلام (أُحلّت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد والكبد والطحال) .

وزيادة على ذلك فقد جاءت السنة بتعاليم لم يتعرض لها كتاب الله تعالى ، كتحريم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال ، وتحريم أكل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير .

للناس ما نُزّل إليهم) .

وهى الينبوع الثانى من ينابيع الشريعة الإسلامية . . هى المصدر الثانى من مصادر التشريع بعد كتاب الله عز وجل . (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) والحكمة هنا : السنّة .

ولقد أمرنا المولى سبحانه باتباعها ونهانا عن مخالفتها (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ليس لنا إلا التسليم المطلق بها والإذعان لأحكامها . (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)

وجعل التسليم بها دلالة وعلامة على الإيمان الحق الصادق (فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

وهى حجة فى التشريع لأنها وحى يوحى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) .

من أجل ذلك كانت أقواله وأعماله ﷺ – بوصفه رسولا – داخلة فى نطاق التشريع ومادامت أحكامه صادرة عن طريق الله : (لتحكم بين الناس بما أراك الله) ومادام هو مهدى إلى صراط الله ، وهو يهدى إلى صراط الله ، فعلى الناس الائتمار بأمره والابتعاد عن نهيه (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

مقامات الحب

كل من له قلب يحس الحب . . يحب . . والمحبة عاطفة مشتركة بين ذوى القلوب الحية النابضة فهم مشتركون فى أصل المحبة ، ولكنهم مختلفون متفاوتون فى مراتبها ودرجاتها . . فللمحبة درجات ومقامات . . وعلى قدر المعرفة تكون المحبة . . فمن عرف الله أحب الله . . وبقدر درجته فى المعرفة تكون درجته فى المحبة ، ولهذا كان رسول الله ﷺ أشد الناس حبًا لله ، لأنه كان أعرفهم بالله قال عليه السلام : « إن أعرفكم بالله أنا » .

والمحبة ثمرة المعرفة يقول الحسن البصرى « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ، ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه » .

وعن العارف المحب . . عن هؤلاء الذين علموا . . وعرفوا . . فهاموا وأحبوا

وأخلصوا الحب لمولاهم يقول عنهم ابن القيم فى كتابه (طريق الهجرتين) :

إنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله ، وعمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته فسرت المحبة فى أجزائهم ، فلم يبق فيهم عرق ينبض ، ولا مفصل إلا وقد دخله الحب ، قد أنساهم حُبه ذكر غيره ، وأوحشهم أنسهم به عمن سواه .

قد فنوا بحبه عن حب من سواه ، وبذكره عن ذكر من سواه ، وبخوفه ، ورجائه ، والرغبة إليه والرهبة منه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والسكون والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره . . فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى ربه ومولاه ، واجتمع همه عليه متذكرا صفاته العُلا وأسماءه الحسنى ، مشاهدا له فى أسمائه وصفاته ، قد تجلت على قلبه أنوارها فانطبع قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه فى فراشه يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد آوى إلى مولاه وحبيبه فآوى إليه ، وأسجده بين يديه خاضعا خاشعا ذليلا منكسرًا .

فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة لا رفع رأسه منها إلى يوم اللقاء . .

وشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع فى سفره إليه البيداء . . بيداء الأكوان وخرق حجب الطبيعة .

ولم يقف عند رسم ، ولا سكن عند علَم ، حتى دخل على ربه فى داره فشاهد عزّ سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله ، فإذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهدا لقلبه أنسته ذكره غيره ، وشغلته عن حب سواه ، وحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به فهؤلاء قلوبهم قد قصعت الأكوان وسجدت تحت عرش الرحمن .

ويقول الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء : إن كل من لا يعرف الله فى الدنيا لا يراه فى الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا لا يجد لذة النظر فى

الآخرة . . ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه إن نعم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادة هى المعرفة التى عبّر عنها الشرع بالإيمان .

وأعلى درجات المحبة . . هى درجة خواص الخواص . . ومرتبة العابدين المتجردين هى بلغة الصوفية : « الفناء » فى المحبوب .

ولفظة الفناء فى ظاهرها ومدلولها الحرفى الظاهرى تدل على الفناء المادى ، فناء الجزء فى الكل ، وامتزاج الفانى بالباقى .

وهذا المدلول الحرفى فى العرف الإسلامى محال . . فالمولى سبحانه نور لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو منزّه عن التحيز والحدود وعن الجهة وعن النهاية والمقدار . .

فالمراد بالفناء فى عرف الإسلام هو الفناء المعنوى ، فناء شهود لا فناء حلول ، هو الفناء الإيمانى المتسامى إلى الذروة فى معرفة الكون وفى اليقين بالمكوِّن . . هو فناء العبد فى محبة مولاه وأن يكون هدفه ربه ورضاه . . يتضاءل الكون كله بما فيه ومن فيه أمام ناظرى المحب فلا يرى إلا مولاه . .

إن أعطاه الله من العرش إلى الفرش يقول : لا . . إياك أريد . لا يريد العطاء والنعم ولكن يريد المنعم المعطى .

تغيب الأغيار عن ناظريه . . ولا يرى إلا ربه الحبيب القريب .

المعطيات الدنيوية والنعم المادية والهبات والمنح فى منطق المحب المتفانى قيم لا وزن لها لأنه لا يحس إلا الرضا ولا ينعم إلا بالقرب ولا يسعد إلا بالأنس والشوق ، لا اختيار له أمام اختيار مولاه يذعن بالقضاء ويرضى بما قدر الله . . ويصبح رضاه وسروره – كما قال عمر بن عبد العزيز – فى مواقع القضاء والقدر أيًّا كانت صوره .

هو مع الخلق يعيش معهم ويحيا حياتهم ولكنه بروحه ووجدانه مع رب الخلق لا يرى إلا جوده ووجوده .

يقول صاحب كتاب « كشف المحجوب » : المراد بالفناء فناء إرادة العبد فى إرادة الله . . لا فناء وجود العبد فى وجود الله .

وفى دنيا التصرف نجد نماذج لبعض الشخصيات كان ماضيها خطايا وآثامًا وأوحالاً وذنوبًا . ثم أحبت وصهرها الحب فنقّاها . . ثم تجردت لهذا الحب وفنت فيه فلم تر إلا حبيبها سبحانه وتعالى وإذا تركنا دنيا التصوف إلى دنيا الناس . .

دنيا البشر نجد نماذج وألوانا لمحبين فنوا فى غاية واحدة هى حب حبيبهم وحده . .

فقيس بن الملوح حينما اشتعلت النار بين كفيه لم يحس اشتعالها وسريانها وهو فى حضرة حبيبته ليلى التى هام بها وجن جنونه من أجلها ولم ير فى الوجود إلا هى . . وهى وحدها .

يقول الإمام القشيرى فى رسالته : وقد ترى الرجل يدخل على ذى سلطان فيُذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه هيبة حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه وعن السلطان وعن نفسه لم يمكنه الإخبار عن شىء . . ثم يقول القشيرى : قال الله تعالى : (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) لم يجدن عند لقاء يوسف بغتة ألم قطع الأيدى وهن أضعف الناس ولكن : ما هذا بشراً – ولقد كان بشرًا – وقلن (إن هذا إلا ملك كريم) ولم يكن ملكًا – فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق فما ظنك بمن تكاشف « أزيلت عنه الحجب » بشهود الحق سبحانه ، فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه فأى أعجوبة فيه ؟ !

قالوا . . عن الحب

« هى أقوال وتعريفات يحاول أصحابها أن يلقوا شعاعاً يكشف النقاب عن معنى الحب . . أقوال لعلماء اللغة ، وفقه الله والشعراء وروّاد التصوف . .

فهل قرّبوا معنى الحب إلى القلب ذلك ما سنراه من أقوالهم »

عرّف اللغويون الحب ، فقالوا : هو المحبة والمودة . والحُباب [بضم الحاء] : الحب والود . .

والحبيب : المحب والمحبوب ، والحِب [بكسر الحاء] المحبوب .

وقالوا : حبَّه ، وأحبه ، واستحبه كلها بمعنى واحد : أظهر المحبة له .

واللغويون وقفوا جهودهم حول تبيان معنى الحرفين : الحاء والباء وما يتفرع منهما ، وداروا جامدين حول ذلك فحسب ، ولعل لهم العذر ، فالصنعة — كما يقولون — تحكم ، وصنعة اللغويين تبيان المضمون فحسب .

ولعلماء الألفاظ وفقه اللغة اتجاهات وتفريعات وتسميات ومسميات ، فقالوا : إن أصل كلمة الحب ، معناها مأخوذ من حَبَب الأسنان ، وهو صفاء الأسنان وبهاؤها ونقاؤها فكأن محبة المحب هى صفاء وقته وضياء نفسيته ونقاء مودته . .

وقيل : أصله من الحب ، وهو القُرط ، لأن القرط يهتز ويميل ويضطرب فى أذن المرأة المتحلية به وكذلك المحب قلِق يخشى على حبه وعلى حبيبته فلا يثبت ولا يستقر .

وقيل : الحب مأخوذ من حباب الماء ، وهو معظمه ، فيكون على هذا اسماً لأعظم ما فى القلب .

وقيل : الحب أصله من اللزوم والثبات من قولهم : أحبّ البعير إذا برك فلم يقم . وكذا المحب ثابت ملازم لا يفارق ذكر محبوبة قلبه .

وقيل من الحب ، وهو : الخابية « أى الجرة الكبيرة » والخابية لا تسع غير ماملأها من الماء ، وكذلك القلب لا يسع غير ماملأه من الحب .

وقيل : الحب مشتق ومأخوذ من الحباب [بفتح الحاء] وهى الفقاقيع التى تعلو الماء عند صب ماء آخر عليه فيكون على هذا اسماً لغليان القلب وفورانه عند الشوق والتطلع إلى لقاء المحبوب .

وأما علماء التحليل والتعليل من هؤلاء اللغويين فقد قالوا : إن كلمة الحب « بضم الحاء » أكثر استعمالاً لأنها تدل على الشدة : شدة الحب ، لأن حركة الضم أقوى من حركة الكسر أو الفتح « فأعطوا كلمة الحب حركة الضم ، ضم احاء ، والضمة أقوى الحركات وأشدها وذلك إشارة إلى شدة الحب » وقالوا : إن الحِب « بكسر الحاء » هو المحبوب والكسرة أخف من الضمة ، لذلك أعطوا الحِب الذى هو المحبوب تلك الحركة الخفيفة وهى الكسر إشارة إلى أن المحبوب خفيف على القلوب ذكره مطاع لديها أمره ونهيه .

أما الشعراء فقد قالوا عن الحروف التى تتكون منها كلمة « المحبة » :

ميم المحبة : جُمعت أطرافها فتشير للجمع الرقيع لشان
والحاء لما فرقت للفرق قد أضحت تشير ومنزل الفرقان

والباء إعطاء العبودية حقها بتحقق فى السر والإعلان
والهاء هويته وقد جلّت عن الإدراك ذات مالها من ثانى

والأبيات – كما نرى – يغلب عليها التكلف والصنعة وخلوها من العاطفة الدافقة

أما علماء المعانى من اللغويين فقد كانت لهم بالنسبة للمحبة آراء وتفاريع وتقسيمات ، فقالوا : المحبة : ميل الطبع إلى الشىء لكونه جميلاً لذيذا عند المحب .

فإن تأكد الميل وقوى سمى « صبابة » لانصباب القلب إليه بالكلية .

فإذا قوى سمى « غراما » لأنه يلزم القلب كلزوم الغريم[1] .

فإذا قوى سمى « عشقا » أى إفراطا فى المحبة .

فإذا قوى سمى « شغفا » لأنه يصل إلى شغاف القلب وداخله .

فإذا قوى سمى « تتيما » أى تعبدا لأنه يجعل المحب ويصيره عبدا للمحبوب ، فيكون ذلك المحب متيمًا مأمورًا ، ومغرمًا مأسورًا .

* * *

والحق أن الحب الحىّ المتدفق ، الصاعد مع الأنفاس المتجدد مع النبضات ، لا تنى الكلمات . . مهما جلت أو قلت – فى تبيان حقيقته والإحاطة بكنهه . .

فاللغويون – وغيرهم – مهما قالوا . . وجالوا فى تبيان المعنى ومشتقاته فهى محاولات منهم . . محاولات فحسب . . لا تصل إلى الغور والكنه والحقيقة واللب . .

ولنقف هنيهة مع هذا المغرم المحب اللغوى الذى أورد أقواله عن الحب ونوره وخمره فى قالب ينبئ عن تمكنه فى اللغة وحبه للسجع والجناس والزخرف اللفظى

---

(١) الغريم هو صاحب الدين الذى يلازم المديون .

قال هذا المحب الولهان :

« من بالإله الحق ذهب فهو ذهب . . إن الذى به الوله ، أنا به وَلِه ، من كان بالله غناه ذهب عنه غناه ، لا يستوى اللاهِ ، وأهل الله : هذا بطاعته بان ، وذلك بمعصيته بان ، ماكل من سلك البرَّ برٌّ ولاكل من ركب البحر بحر ، مادامت نفسك بشهواتها تحت رق ، فأنت معها أبدا تحترق ، باختلاف الأطوار اختلفت الأوطار ، نور المحبة إذا لاح لم يبق لك من لاح[٢] . . شتان بين محبّ فى باب ربه يتذلل ، وبين محبوب على مولاه يتدلل ، شتان بين من هو باعتقاده قار[٣] ، وبين من هو بانتقاده فار ، قد سقانى من برانى شرابا شفانى به وربانى ، وهو الذى أوصى بى ، بصدقه على أوصالى ، طابت خمرة المحبة وطيبت النفوس لما شربها القوم بحضرة القدوس . . » إلخ . . وقال الصوفية عن الحب :

الحب عندهم بكل ما يحويه من إلهام وإشراق وفيوضات ونفحات ، الحب بأحاسيسه ومواجيده . . بهذه المعانى والمقامات ، لا يمكن تحديده عند الصوفية ولا تعريفه ولا شرح حقائقه وأسراره . . إنما الحب عندهم يحدُّ باللفظ ، وباللفظ فقط ، ويعرف بالكلمات وبالكلمات فحسب ، أما الوصول إلى معرفة كنهه وتعريف حقيقته والغوص عن معناه فى شمول وإحاطة فذلك فوق الطاقة . . ؟ إذ الحب يُحسُّ ولا يوصف ، ويعرف ولا يعرَّف . . يقول محيى الدين بن عربى : « من حَدَّ الحبَّ ما عَرَّفه ، ومن لم يذقه شرباً ما عرفه ، ومن قال رويت منه ما عرفه ، فالحب شراب بلا رىّ . . » .

وهكذا الحب شوق دائم وحنين دائب وهيام لا حدَّ له ، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن وراء ذلك ما هو أتم وأوفى . .

---

(٢) لاح : لائم .

(٣) قار : ساكن راضٍ .

وسئلت رابعة العدوية – وهى فى دنيا التصوف رائدة من رواد المحبة الإلهية – سئلت : كيف رأيت المحبة ؟ قالت : ليس للمحب وحبيبه بين ، وإنما هو نطق عن شوق – ووصف عن ذوق ، فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف ، وكيف تصف شيئا أنت فى حضرته غائب ، وبوجوده دائب وبشهوده ذائب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له ولهان ، فالمحبة تخرس الألسنة عند الإخبار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار ، والحيرة توقف الجنان عن الإظهار ، فما تَمَّ إلا دهشة دائمة ، وقلوب هائمة ، وأسرار كاتمة ، والمحبة بدولتها الصارمة فى القلوب حاكمة :

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة ... وأنا المشوقة فى المحبة رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها ... وإذا المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرتُ فلا أرى إلا له ... وإذا حضرتَ فلا أرى إلا معه
يا عاذلى إنى أحب جماله ... تا الله ما أُذنى لعذلك سامعه
كم بثّ من حرقى وفرط تعلقى ... أجرى عيونًا من عيونى الدامعه
لا عَبرتى ترقا ، ولا وصلى له ... يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

ويقول معروف الكرخى : « إن محبة الله شىء لا يكتسب بالتعلم ، إنما هى هبة من الله وفضل » . ويقول ابن القيم فى وصف المحبة : : لا تُعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها ، وفرق بين الذوق والوجود ، وبين التصور والعلم ، فالحدود والرسوم التى قيلت فى المحبة صحيحة ، غير وافية بحقيقتها بل هى إشارات وعلامات وتنبيهات » . حقًّا ، إن هذه التعريفات تلقى شعاعًا على الحب الإلهى ، ولكنها لا تحده ولا تعرفه التعريف الجامع المانع كما يقولون ، ولا تعرفه التعريف الكامل المحيط الذى يتذوقه صاحبه ويحسه ، فالكلمات والألفاظ مهما سمت

وتسامت ومها ارتفعت وبلغت فإنها لا تصف النور إلا بأنه نور . ولا تصور الشرق إلا بأنه شوق . .

أما ما تنطوى عليه تلك المسميات ومضامينها الدقيقة فأسرار لا يعلمها إلا من انفعل بها وعاشها وهام وعانى . . لا يعرفها إلا من ألهم النور وعاش به وله ، ومن نعم بالإشراق والأشواق وأحس كل ذكل يملك عليه أقطاره وكيانه ووجدانه .

أما الكاتب الصحفى الأستاذ مصطفى أمين فله « فكرة » عن الحب والمحبة ننقلها من « أخباره » قال فيها : جاء الشاب الناجح يستشيرنى : أى النساء يتزوج ؟ هل يتزوج الفتاة المثقفة التى تجيد اللغات الأجنبية ليصحبها فى رحلاته المتعددة إلى أوربا وأمريكا ؟ أم يتزوج الفتاة الأنيقة الجميلة ذات الشخصية الجذابة التى تقف بجواره فى الحفلات والاستقبالات وتسرق له الأضواء ، أم يتزوج امرأة تعمل فتعرف قيمة العمل وتقدر عذابه ومشاقه ومتاعبه فلا تثقل عليه بمشاكلها التافهة وهو غارق فى الصفقات الكثيرة والأعمال الضخمة ؟ أم يتزوج ست بيت تجعل بيته الجنة التى يستريح فيها من جحيم العمل المتواصل !

قلت له : أنت تحتاج إلى امرأة فيها صفات متعددة ، هى مزيج من العصا التى تتوكأ عليها وأنت تصعد الجبل ، والمظلة التى ترفعها فوق رأسك وأنت تسير فى أمطار الحياة ، ومانعة الصواعق التى تصمد للأعاصير . . أنت محتاج إلى مصباح تحمله وأنت تمشى فى الظلام ، وإلى « بوصلة » تهديك فى التيه ، وإلى خزانة تودع فيها أسرارك ، وإلى « فرامل » توقفك عندما تندفع ، وإلى روح قوية تمنعك من أن تتخاذل وأنت تواجه ضربات الأعداء ، وإلى علبة أسبرين عندما تشعر بالصداع ، وإلى صوت جميل يغنى لك وأنت تغمض عينيك على أنغامه ، وإلى منديل يمسح دموعك ويجفف عرقك ، وإلى مرهم يبرد جروحك وإلى حاجز للصوت يمنع وصول الضوضاء إليك ، وإلى مستشار ترجع فيه إلى مشاكلك . . فإذا بحثت عن

حكيم وجدتها بين يديك ، وإذا بحثت عن صديق وجدتها أمامك ، وإذا افتقدت الأم وجدت فيها حنانها وحدبها وتضحيتها .

الرجل العادى يحتاج إلى امرأة عادية . . ولكن الرجل الناجح ، هو رجل غير عادى . ولهذا يحتاج إلى امرأة غير عادية ، تحتمل أضعاف ما تحتمل أى امرأة أخرى ، تصبر أكثر مما صبر أيوب . تصمد كأنها جبل ، تستطيع أن تكون عمود الرجل الفقرى وقلبه وعقله فى وقت واحد . تعيد له الأمل عندما ييأس . . وتحبب له الكفاح والثبات عندما يتراجع . وتبتسم فى الوقت الذى تغيب فيه البسمات ، وتحلم فى وقت يعم فيه الكابوس ، وتعامل الناس وهى فى قيمة السلطان خيرا مما كانت وهى جالسة عند السفح . كلما ارتفعت تواضعت ، وكلما علت مدت يدها إلى الواقعين على الأرض ، إذا تعالى زوجها جذبته إلى تحت ، وإذا أفلس عاملته كأنه أغنى مَنْ على الأرض .

قال لى الشاب الناجح : مستحيل أن أجد هذه الزوجة .

قلت له : كل امرأة تحب ممكن أن تكون هذه الزوجة .

تساؤل . . ورأى

إن كثيرا من قراء كتابى هذا يتصفحون الآن صفحاته – فى تؤدة حينا ، وبسرعة أحيانا حتى يصلوا إلى الصفحات التى تجيب عن تساؤلات تدور فى أعماقهم عن الحب الجسدى الذى تنبض به أجسامهم وتفيض به أحاسيسهم وحواسهم .

وعن الصفحات التى تتحدث عن النظرة الجائعة وعن الرغبة الجامحة الجانحة ، وعن العاطفة المشبوبة والأشواق الملتهبة . . وأحلام اليقظة والعلاقات الجسدية بين الجنسين . . وعن الأنوثة . . عن دنيا المرأة التى يعيشها المراهقون والصبايا والتباب والتى حولها يحلمون ويخالون ويتخيلون . .

يدفعهم الحب إلى التساؤل عن معرفة رأى الدين فى كل هاتيك المناحى والنواحى التى يعيشونها فى دنيا الخيال . . قبل دنيا الواقع .

يتساءلون ويقولون نريد أن نعرف فى وضوح وتحديد رأى الدين فى حب الرجل

للمرأة وحب المرأة للرجل حبًّا جسديًّا . . وعن رأيه فى القلب والميل به وإليه ، وعن الجسد والسكن إليه . . وعن النظرة بكل ما تشيعه وتشع به . .

تعالوا أيها المتطلبون للمعرفة نرى ونعرف فى تحديد محدود وفى وضوح واضح رأى القرآن والشريعة الإسلامية فى المحبة الجسدية . . وفى العلاقة العاطفية بين الذكر والأنثى .

تعالوا بنا إلى دنيا المرأة نجد المرأة فى دنيا المرأة ، نجدها : أمًّا أو بنتا أو اختا أو زوجة أو امرأة أجنبية عن الرجل لا تربطه بها آصرة من نسب أو رابطة من قرابة أو دم أو رحم .

هذه هى المواقع التى تكون فيها الأنثى فى دنيا المرأة .

والمرأة فى كل هذه المواقع لها من تعاليم الإسلام ووصاياه وقوانينه أصول محددة ومعالم واضحة وملامح ظاهرة القسمات بينة السمات .

فى مجال الأمومة :

بعد أن أمر القرآن بالإحسان إلى الوالدين وإكرامها وتكريمها نراه يدفع الشباب بنات وأبناء وبنين إلى حب المرأة ممثلا فى حب الأم التى خصَّها الإسلام بمزيد من الاهتمامات حتى جعلها لما تحتمله ولما قدمته وتقدمه – جعلها مقدَّمة فى البر على الأب .

روى الشيخان : أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك . وقال « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

ورأى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهما ، رجلا يطوف بالكعبة حاملا أمه على رقبته ، فقال : يابن عمر ، أترانى جزيتها به ؟ قال : ولا بطلقة

واحدة ، ولكنك أحسنت والله يثيبك على القليل الكثير . وعن أسماء بنت أبى بكر قالت : أتت إلىّ أمى وهى مشركة وكانت راغبة فى مالى ، طامعة فى عطائى فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : قدمت على أمى وهى راغبة أفأصلها وأتصدق عليها مع كفرها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم صلى أمك » . . وهل الحب إلا العطاء . . والوصل . . والطاعة . . والقول الكريم ؟

أما المرأة الأجنبية عن الرجل :

فهى فى عرف الإسلام ذات مصونة ، وحمى ممنوع ، وفاكهة محرمة لا تحل إلا بعقد مشروع ، وبهذا العقد يحمى الإسلام المرأة ويصون جسدها من أن يُبتذل ويحافظ على شرفها من أن يدنس ، وعلى كرامتها من أن تهدر أو تلوث ، ويحافظ على الأنساب من أن تختلط وعلى الأعراض من أن تُنتهك أو تُغتصب حتى ولا أن تلتهم بالعين ، فالنظرة حرام – عدا الأولى – النظرة الأولى لك والثانية عليك « من نظر إلى امرأة أجنبية بشهوة صبَّ فى عينه الآنك يوم القيامة » والآنك الحديد المذاب . والإسلام قد وقف من النظرة وقفة وقائية حاسمة ، لا لذاتها ، بل لما يترتب عليها . . النظرة فى حد ذاتها ليست بذات أهمية فى نظر الشرع . . النظرة بغض النظر عن نتائجها يقف الدين منها موقفا سلبيًّا سلميًّا . . أما إذا تكررت وتمكنت ، فأهاجت الأحاسيس ودفعت الدم حارًا جارفا فى الأوردة والعروق ففقد الناظر سيطرته على شهوته وحِفظ فرجه . . فهنا الخطر كل الخطر ، والإسلام يحول بين المرء والأخطار ؟ لذلك جعل هذه النظرة الإيجابية التى تُسلم إلى الزنا نظرة مسمومة قال الرسول عليه السلام عنها . « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » ويقول الله سبحانه ناهياً عنها : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) « من

أبصارهم » ، ولخبراء الألفاظ والتعابير وقفة إزاء « من » هذه ، إذ غض البصر كله مستحيل ، لذلك كان من بلاغة القرآن وواقعيته أن عبّر بـ « من » ولم يقتصر التحذير فيها على الرجل فقط ، بل والمرأة أيضا حرم الله عليها أن تنظر نظرة جائعة إلى شاب . . حتى ولو كان أعمى .

المرأة لا تحل للرجل والرجل لا يحل للمرأة إلا برباط مقدّس وميثاق غليظ بالزواج ، والزواج محبة وتعاون وسكن ومودة وعلاقة شريفة وارتباط جسدى مشروع . . هو الطريق الذى سارت فيه الإنسانية منذ مولدها إلى اليوم . . وستمضى فيه مواكب البشر إلى نهايته حيث تكون أيضا نهايتها ، من ذكر وأنثى بدأت حياة البشر ، ومن بيت واحد نبعت الإنسانية بيت عماده آدم وحواء ، ومن بينهما تكونت أسر وسلالات ، ومن بينهما تفرعت بيوتات وقامت مجمعات وظهرت أمم ودول ، وتبارك الله الذى (خلق من الماء بشرا فجعله نسبًا وصهرًا) .

والزواج فى نظر القرآن ليس وسيلة لحفظ النوع الإنسانى فحسب ، بل هو فوق ذلك وسيلة للاطمئنان النفسى والهدوء القلبى والسكن والوجدانى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) [سورة الروم : آية ٢١]

والقرآن بهذا النص يضع أسس الحياة والعاطفية الهانئة الهادية ، فالزوجة ملاذ للزوج يأوى إليه بعد جهاده اليومى فى سبيل تحصيل لقمة العيش ، ويركن إلى مؤنسته بعد كدّه وجهده وسعيه ودأبه يلقى فى نهاية مطافه بمتاعبه إلى هذا الملاذ . . إلى زوجته التى ينبغى أن تتلقاه فرحة مرحة ، طلقة الوجه ، ضاحكة الأسارير ، يجد منها آنئذ أذنًا صاغية ، وقلبًا حانيًا ، وحديثًا رقيقًا يخفف عنه ويذهب مابه .

والزواج من أجل ذلك كان ترويحًا وإيناسًا وتجاوبًا وتعاطفًا ؛ لذا دعا الدين إليه ورغّب فيه ، ومهّد له الأسباب ، ومكّن له فى نفوس المؤمنين (وأنكحوا

الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) .

[سورة النور آية ٣٢]

وقد وقف الإسلام من العزوبة موقف الكاره الكاشح بدليل قول رسول الله ﷺ لعكاف بن وداعة الهلالى : « ألك امرأة ؟ قال : لا . قال : ولا جارية ؟ قال : لا ، قال : وأنت صحيح موسر ؟ قال : نعم والحمد لله ، قال : فأنت إذن من إخوان الشياطين ، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح » .

إن من شياطين الإنس هؤلاء الذين كلهم قوة وصحة وشباب ثم يعزفون عن الزواج مع مقدرتهم عليه وعلى تكاليفه ويركنون إلى العزوبة ، فتلوث عواطفهم بأفكار سوداء ، وتتوارد على خواطرهم خاطرات خطرات تنزع بهم إلى المعصية ، وتنحرف بهم عن الطريق السوى المستقيم ، وتميل بهم إلى المآثم والشرور لذا وصفهم رسول الله ﷺ بقوله : « شراركم عزابكم » .

وما وصفهم الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – بهذا الوصف . . وما وقف من العزوبة ذلك الموقف إلا لأن إثمها أكبر من نفعها ؛ فهى تسير بأصحابها فى طريق الفناء والدنس ، وتبعد عنهم الاستقرار ، وتحرمهم عاطفة الأبوة ونعمة النسل .

وقد تهب رياح حقد وكراهية فتثير فى أرجاء البيت عواصف وزوابع . . وقد تظلل سماء البيت سحابة قاتمة سوداء تعكر الصفو وتنذر بالقطيعة والتفرق . . وقد تمر فترات تتقلب خلالها القلوب فتنقلب آيات المحبة والرحمة إلى بغض ونفور ، وتضيق نفس الزوج أو الزوجة بالمنزل ومن فيه وما فيه . . وإن لم يثبت البنيان العائلى أمام ما اعتراه من هذه الطوارئ والمفاجآت تركت أخاديد عميقة فى بنائه وإن لم تكن الحياة الزوجية وقت ذاك مدعمة بحسن العشرة والمحبة والشورى تقوض

المنزل وتبددت الأسرة وتفرّق الشمل .

والقرآن الكريم قد عالج هذه الحالات التى تعترى نفسية الأزواج . . فوضع لهم ذلك المبدأ (وعاشروهن بالمعروف) والمعاملة باللطف واللين ، فإن استبدت بهم النوازع وتحجرت العواطف وتملكتهم الكراهية . . فعسى أن يكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . . وكما يكمن البرء فى مر الدواء . . وكما تحمل الشدّة فى طياتها بوادر الفرج ، فقد يكون وراء الكراهة ما وراءها من جليل الخير وجزيل النعم (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا) على أن حسن المعاشرة لا يطالب به الرجل وحده ، ولا المرأة وحدها ، بل هو قدر مشترك بينهما يطالب به كل منهما .

إن كلمة رقيقة من أحدهما للآخر . . أو دعابة مستملحة ، أو هدية فى مناسبة . وما أكثر المناسبات فى الحياة الزوجية – أو مشاركة رمزية من الزوج فى أعباء المنزل وأعماله . . إن هذه الأشياء التى تبدو لدى البعض أشياء تافهة صغيرة لها وقع فى النفوس ، ولها نفع أى نفع عندما تتأزم الأمور وتتعقد فلا يحلها ولا ييسرها إلا هذه الأشياء التى تبدو هينة يسيرة ، فرب كلمة طيبة أضاءت آفاقًا وفتحت مغاليق ، وبددت ماران من سحب الخلاف فى أجواء البيت .

إن الإسلام قد اهتم بالعلاقة الجنسية المشروعة . . وأراد الحفاظ على هذا التلاق الطاهر فوضع له الحدود التى تتسامى به حتى يصل إلى درجة العمل المتعبد به الذى عليه المثوبة والأجر كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ مع صحابته الذى قال لهم فيه : إن فى بضع أحدكم صدقة ولما أبدوا دهشتهم قال لهم ألو وضع النطفة فى حرام أكان عليه إثم ووزر . ؟ .

فلما أجابوا بالإيجاب قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام وكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر . والحديث كما رواه مسلم : « إن فى بضع أحدكم لصدقة

قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر » .

كذلك قرر رسول الله ﷺ أن اللقمة التى يرفعها الزوج إلى فم زوجته . . له صدقة ومثوبة وأجر على ذلك العمل الذى يوثق المحبة ويمكن المودة بين الزوجين يقول عليه الصلاة والسلام : « ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته » « . . إن فى اللقمة ترفعها الزوجة إلى فمها لأجرًا لزوجها الذى سعى فى سبيلها » .

القُبلة :

وقد اهتم الإسلام بالقبلة . . والقبلة لحن الحب المميز يوقع بالشفاه

والقبلة : حديث بلغة الشفاه حديث طلى حلو يترجم عن دفين العواطف ومكنون الأحاسيس . .

القبلة : توقيع بالشفاة الأولى على ميثاق الشوق ومعاهدة المحبة . .

القبلة : همزة وصل بين قلبين متحابين . .

وقبلة الزوج لزوجته : هى القبلة التى أولاها الإسلام عناية بالغة فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يقعنَّ أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ، وليكن بينهما رسول . . قيل : وما الرسول يا رسول الله ؟ قال : القبلة والكلام » .

والرسول عليه السلام بهذا الحديث النبوى الاجتماعى النفسى يقنن مبدأً من أهم مبادئ الحياة الجنسية العملية القويمة . . فلابد للنتيجة من مقدمة ، وللغاية من وسيلة وطريقة ، وأول طريقة للتجاوب الجنسى السعيد : قبلات ، وكلمات ، وهمسات ولمسات . . تهيئ الجسد وتوحد الرغبة . . وتوصل للامتزاج والتجاوب الحق .

والعملية الجنسية إذا كان فيها تجاوب ووفاق جبّت كل ما يقف فى طريق الحياة الزوجية من صعاب وذللت كل ما يوجد أو يجدّ من عقبات . . وسارت سفينة الحياة الزوجية ثابتة وسط الأنواء والأعاصير .

أما إذا انعدم التجاوب جدّت المشكلات ووُجدت المشاكسات والمنازعات . .

وكثير من المشاحنات والاهتزازات الأسرية ، ولا سيما فى بدء الحياة الزوجية ، مردّها إلى اضطراب الحياة الجنسية ، فكم من أسر تقوضت ، لأن التكافؤ الجنسى والتوافق الجسدى معدوم بين الزوجية ، أو لأن معاشرتها الجنسية قائمة على الفوضى وعدم الانسجام . . فلا وسائل . . ولا مقدمات ، بل قسر ! ! وتوحش ! ! واغتصاب ! ! أو أنانية إذ يقضى الرجل وطره من زوجته ويتركها قبل أن تقضى وطرها منه ، مخالفاً بذلك قول رسول الله ﷺ : « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها . . ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها » .

وملاعبة الرجل امرأته من أهم المسائل التى عنى بها علماء فلسفة التناسليات فى العصر الحديث وقد وضعها الإسلام قبلهم بأكثر من أربعة عشر قرنا ووضعها موضع العناية والاهتمام وذلك لتنبيه الغافلين إلى أمور تتحقق بها السعادة الزوجية وتركو بها نار الحب عند الزوجة ، وتجعل العلاقة بين القرينين أرفع من أن تكون مجرد عمل آلى بعيد عن العطف والمودة ، عارٍ من الحب والحنان ، قال جابر بن عبد الله نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة » .

والقبلة الزوجية عند الفراق والوداع وعند اللقيا ليست وليدة المدنية الحاضرة ، ولا نابعة من عادات الغرب ، إنما هى تقليد إسلامى حرص عليه كثير من المسلمين الأوائل وبخاصة بعد أن جعل الإسلام القبلة لا تفسد صومًا ولا تنقض وضوءًا ، قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ ينال منى القبلة بعد الوضوء ثم

لا يعيد الوضوء » .

وكذلك قالت أم سلمة زوج رسول الله ﷺ إنه كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يجدد وضوءًا .

قال عمر بن الخطاب : هششت[1] فقبَّلتُ وأنا صائم ، فقلت : يا رسول الله ، صنعت اليوم أمرًا عظيمًا ، فقبلت وأنا صائم . فقال عليه الصلاة والسلام : « أرأيت لو مضمضت من الماء وأنت صائم ؟ قلت : لا بأس . فقال صلوات الله عليه وسلامه : فمه ؟ ! » .

وفى دنيا الطفولة :

نجد الأنثى طفلة . . تلهو فى سذاجة وبراءة وطهارة ونقاء وصفاء وكانت البنت تُوءدُ ، قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام حرم وأد البنات وطمأن الفقراء الذين كانو يلجئون إلى هذه الجريمة النكراء دفعا للمرّبة ، ودرءًا للتكاليف والالتزامات ، فذكرهم بأن الله سبحانه هو الكفيل برزقهم ورزق أولادهم ، وأن قتلهم كان خطئا كبيرا : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم)

[الأنعام : ١٥١]

وقال للأغنياء الذين أخذتهم العزة بالإثم ، فتخيلوا أن الأنثى مجلبة للهم . . أو قالوا إنها قد تلجئ إلى المسغبة أو تدفع إلى العار والمذمة ، فاتخذوا كل هذا ذريعة لوأدها ، فأبان لهم نتيجة هذه الفعلة الشنعاء ونهاهم عن الوقوع فيها ، ودفع هؤلاء الذين يئدون البنات من أولادهم بضيق العقل وبالسفه والضلال : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئًا كبيرًا) .

[سورة الإسراء : ٣١]

---

(١) أى ضعفت .

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين) [الأنعام الآية ١٤٠]

فكتب بهذا النهى للأنثى الحياة . .

كذلك نهى الإسلام عن إيثار البنين على البنات ، لأن الإيثار يوخر الصدور ويولد الحزازات ، لذا نهى الإسلام الآباء أن يؤثروا بعض أبنائهم على بعض حتى لا يمتلئ الأبناء حقدًا عندما يرون أخاهم الأصغر وقد خصه الأب بالعطف وحتى لا تغص نفوس البنات حسرات حينما يرين أنهن أقل من إخوتهن البنين إنصافا ومساواة وتقديرًا . .

والإسلام – فى نصوصه العديدة – نجده قد دفع الآباء إلى حب البنات . . وأغراهم بهذا الحب ، وحرضهم عليه . . روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت له أنثى فلم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة » وقال عليه الصلاة والسلام : « من عال جاريتين » – أى من ربى بنتين – حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين . « وضم الرسول عليه السلام أصبعيه : الوسطى والسبابة » .

وقال : « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن ، وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له » .

وقد استل القرآن بمبضعه الإلهى من جسم الأمة العربية هذه الأدواء المزمنة التى أزرت بالأنوثة وأضنت المرأة دهرًا طويلاً . .

ووضع لدنيا المرأة تلك التشريعات التى حمتها وصانتها وأحاطتها بسياج من العزة والرفعة وحسن التقدير .

سمو . . وعفة :

سمو القرآن . . وعفة أسلوبه ، وبراعة إشاراته وكريم توجيهه يظهر عند تعبيره

عن « التلاقى الجنسى » مرّة بالمباشرة ، وأخرى بالملامسة ، وثالثة بالمواقعة أو الإفضاء . . أو المضاجعة ، أو « الإتيان » .

والمستقرئ لألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته فى هذا الميدان كقوله :

(فالآن باشروهن) .

(أو لامستم النساء) .

(أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) .

(فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) .

(ولا تقربوهن حتى يطهرن) .

المتتبع لهذه الآيات السالفة يجدها ، ومثيلاتها ، تتسم بالإشارة والتلميح . أو يلفها ملفوفة فى غلالة من رقيق اللفظ ، أو مصبوبة فى قالب كنائى جميل : (لا تقربوهن . . فلما تغشاها . . لامستم النساء) أو تشبيهات أخّاذة ! كتشبيه النساء بالحرث فى قوله تعالى : (نساؤكم حرث لكم) .

ولعل القرآن يهدف من وراء تعابيره وإشاراته تلك أن يوجه الأنظار إلى لون من التربية الاجتماعية يربّى به الخلائق ، ويرشد بوساطته الزوجين إلى أن التقاءهما الجنسى يجب أن يحاط بسياج من الرقة والأدب ، والبعد عن المصارحة والمكاشفة ، بل تكفى الإشارة أو اللمحة ، أو إبداء الزينة ، أو التجمّل . . والتطيّب . . دون الدعوة المباشرة من أحد الزوجين .

وفى تفسير المنار جـ ٢ ص ١٧٦ : « وقد علمنا القرآن الكريم التراهة فى التعبير عن هذا الأمر عند الحاجة إلى الكلام فيه بما ذكر من الكنايات اللطيفة ، كقوله : (لامستم النساء - أفضى بعضكم إلى بعض - دخلتم بهن - فلما تغشاها حملت . .) . .

ومن الآداب الإسلامية التى أوصى بها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام

عندما يدخل الرجل على أهله أن يقول : « اللهم بارك لى فى أهلى وبارك لأهلى فىّ ، وارزقنى منها ، وارزقها منى ، واجمع بيننا ما جمعت فى خير ، وإذا فرقت بيننا ففرق فى خير » .

أو يقول كما قال الرسول عليه الصلاة والتسليم : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى ، فإن قضى بينهما ولد لم يضره الشيطان » .

من هذا كله . . وبعد هذا كله يتبين أن الكتاب الحكيم قد تعرض لتلك الحياة وتلك العلاقة الجسدية فى ثوب كله طهارة ونقاء ، وفى قالب وقائى علاجى وفى أسلوب كنائى جميل . .

حقًا إن القرآن لم يتعرض لها فى إسهاب ولم يذكرها فى تفصيل وتفسير . وإنما وضع — كما هو شأنه — قواعد كلية لها وأصولا نفسية ، وأسسا اجتماعية هى من أسس السعادة فى تلك الحياة .

ثم جاءت السنة النبوية ففصلت وفسرت هاتيك الخطوط العريضة . وأبانت مساتير الروعة الإلهية ، وكشفت للعقول وللقلوب عن أسرار لو عقلتها الإنسانية لعزّت وسادت .

إن من أنصع الأدلة على صدق ذلك الكتاب السماوى وواقعيته أنه تناول هذه النواحى العاطفية وتلك المناحى التى تتصل بالوجدان والغريزة ، فهذبها ووضع لها الحدود والقوانين الكفيلة بتنظيمها والاتجاه بها وجهة صالحة خيرة .

فهو ليس كتاب ترهيب وترغيب فحسب ، بل هو كتاب تشريع وإنسانية كاملة تناول الحياة بكل ما تزخر به من حب — وما تفيض به من عطف ، وما تغصّ به من مِقَةٍ وحنان .

* * *

وبعد كل هذا . .

من قال إن القرآن الكريم لم يتعرض للحب الجسدى . . ولم ينظم الناحية الجنسية فقد أغرب ! ! وكذب على الله الذى قال : (مافرطنا فى الكتاب من شىء) .

والذى يرجع إلى كتاب « الإسلام والحياة الجنسية »[٢] يجده قد عرض حديث القرآن عن هذا الموضوع . . موضوع الجنس الذى شغل ويشغل أذهان الكثيرين من شباب الإسلام .

وقد خصص هذا الكتاب كل صفحاته للحديث عن التربية الجنسية الصحيحة الهادية الهادفة المستقاة من شريعتنا المستوحاة من كتاب الله النابعة من الهدى الإلهى والتوجيه المحمدى .

وكان بذلك – فيما أعلم – أول كتاب فى المكتبة القرآنية بحث فى دنيا الدين عن دنيا الجنس واستخرج من المصادر التشريعية الإسلامية قواعد هذه الحياة .

يقول هذا الكتاب تحت عنوان الاعتزال الجنسى ص ٧١ : وليست المرأة كلها حلالاً لزوجها يستمتع بجسدها متى شاء أنى شاء ! ! فقد نظم القرآن – وهو الحكيم – الاتصال الجنسى ، فأباحه فى أوقات ، وحرّمه فى أوقات أخرى ، أباحه عندما لا يكون من ورائه ضرر أو أذى أو مرض ، وحرّمه فى أزمان يكون الجسد فيها تحت وطأة أزمات خاصة وإفرازات معينة .

جسد المرأة تعتريه فترة شهرية تجعله غير مهيأ لذلك الاتصال ، ولا صالح لتلك المباشرة . . فترة اضطراب عضوى مصحوبة بآلام وسيلان دماء وأقذار ، ونجاسات . .

---

(٢) وهو من تأليفنا وتقديم الإمام المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود . الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية .

لذلك حرّم الإسلام على الرجل فى أرقات الطمث هذه أن يلتقى بامرأته التقاء جنسيًا . . وأباح له أن يستمتع بالجسد ، ما عدا موضع الأذى ، وهو مكان خروج الدم حتى تطهر امرأته .

فإذا تطهرت بزوال الدم والاغتسال أتاها فى المكان المخصص لذلك الإتيان . .

ركب الصحابى « مسروق » إلى عائشة رضى الله عنها ، فقال حينما وصل إلى بيت النبى : السلام على النبى وأهل بيته . فقالت عائشة : وعليك السلام . . ولما أذنوا له بالدخول قال : إنى أريد أن أسألك عن شىء وأنا أستحى ! ! فقالت : إنما أنا أمك وأنت ابنى فقال : ماللرجل من امرأته وهى حائض ؟ قالت : له كل شىء إلا فرجها .

وفى حديث خزام بن حكيم أنه سأل رسول الله ﷺ : ما يحل لى من امرأتى وهى حائض ؟

قال : لك ما فوق الإزار . أى — ما فوق السرة — . أما الدبر فهو حرام على الزوج فى جميع الحالات وفى كل الأوقات . قال مجاهد : « دبر المرأة مثله من الرجل » .

وقد أثبت الطب الحديث أن المعاشرة الجنسية أيام الطمث تسبب أمراضا تناسلية وتصيب الجنين بالزهرى أو الجزام أو العته أو التشويه .

وهكذا يكشف لنا الطب الحديث عما وراء هذا النهى الإلهى من حكمة ، وعما يقبع خلف ذلك التحريم الجنسى أيام الحيض من جليل الفائدة وعظيم النفع (ويسألونك عن المحيض ، قل : هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) .

يقول صاحب « المنار » فى تفسير هذه الآية : يجب على الرجال ترك غشيان نسائهم زمن الحيض ؟ لأن غشيانهن . سبب للأذى والضرر ، وإذا سلم الرجل من

هذا الأذى فلا تكاد تسلم منه المرأة ؟ لأن الغشيان يزعج أعضاء النسل فيها إلى ما ليست مستعدة له ولا قادرة عليه ، لاشتغالها بوظيفة طبيعية أخرى هى إفرز الدم المعروف » .

الدين . . والحجاب :

ويريد الشباب أن يعرفوا رأى الدين فى الحجاب ، وبخاصة بعد أن ظهرت فى محيطه ألوان من الحجاب تجاوزت الحد وطفت على الجسد حتى جارت على ما أحل الله وحجبت ما ليس فى إظهاره حرمة ، وجعلت المرأة تسير فى الطريق شبحا أسود أو كتلة سوداء متحركة يغطى رأسها إلى أخمص قدميها حجاب كث غليظ لف الجسد كله بما فيه . . ومن فيه .

الدين يقول إن وجه المرأة ليس بعورة وكذلك كفّاها ، وجل الأئمة من الفقهاء قد صرحوا وحكموا بأن جسد المرأة عورة ويستثنى من ذلك الوجه والكفان ظهرًا وبطنًا فهما ليس من العورة « انظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٩٨ طبع دار الشعب » .

ومن أجل ذلك أجاز الشرع للمرأة أن تطوف وقد كشفت عن وجهها ويديها .

وهذا من سماحة الإسلام ويسره . . وبخاصة فى هذه الظروف التى تمر بها المرأة المسلمة – عاملة أم غير عاملة – تمر وتسير فى طرقات تشابكت فيها وسائل المواصلات وتعددت وتعقدت ، وعز فيها السير على الجميع . . ركبانًا . . ورحالاً .

ومن هذا نرى المغالاة فى صنيع بعض المحجبات اللاتى تجاوزن الحد ! !

على أن الإسلام – الوقائى – «إن صح هذا التعبير» يرى إذا كان وجه المرأة مبعث فتنة لها أن تستره وتختمر ، أى تضع عليه خمارا . . ولو رقيقا يحميها من

النظرات ويقيها شر الكبوات فى الطرقات التى تعج بالسائرين وتغص بوسائل المواصلات المجنونة .

للمرأة إذن أن تختمر أو تحتجب عند الإحرام أو فى غيره . روى عن بعض الصحابيات أنها قالت : « كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات ونحن مع أسماء بنت أبى بكر فلا تنكره علينا » فيجوز للمرأة المحرمة – إذا أرادت – أن تستر وجهها لتبعد نظرات يوجهها إليها من تسوّل له نفسه وهو فى ضيافة الله أن يجترئ على الله . . فيمد بصره إلى وجه المرأة . .

ومن نافلة القول أن نقول إن إظهار المفاتن وتعرية الجسد أمر لا يقره الدين يقول الله سبحانه : (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين) .

على النساء أن يتحشمن فى ملابسهن ليقطعن الطريق على كل من يريد أن يتصدى لهن بكلمة نابية أو قولة داعرة ، أو تعليق فاجر بذىء ، فسليط اللسان والعابث والماجن والمستهتر . . كل أولئك يتصدون فقط لمن أبدت مفاتنها وحسرت عن فتنتها ، فكأنها بذلك تدعوهن ليطرين جمالها ويثنين محاسنها . . و . . و . . وما أشبه الليلة بالبارحة ! !

فلفيف من شبابنا يعانى فراغا فى وقته . . وفى عقله . . وفى عقيدته يهدد طاقته فى التصعلك والتسكع فى الشوارع والطرق . . لا همَّ لهم إلا الانتظار على نواصى السكك وفى الحدائق يشيعون هذه بنظرة جائعة ، ويستقبلون تلك بقولة جريئة مكشوفة . . ! !

وهذا العلاج القرآنى الذى يدعو إلى التستر والتحجب ليست فائدته مقصورة على تلك الناحية النفسية السالفة فحسب ، بل فيه فائدة اجتماعية . .

فيه حل لأزمة ! ! أزمة الزواج .

فمن أسس تلك الأزمة : العُرى الذى تقع عليه أنظار الرجال فى الشواطئ والمحافل وفى المجتمعات والأندية فى الشوارع والنوادى والمصايف . . نساء كاسيات عاريات . .

قد أُتخم الشاب بما يراه من مظاهر العرى . . فعزفت نفسه عن الزواج .

ولماذا يتزوج وهو يرى الفتاة الأجنبية عنه فى متناول يده تكاد تلتهم عيناه كل أجزاء جسدها ؟ ! كلاً مباح . . وأرض مفتوحة . . وجسد يكاد يكون أمامه فى كل آن ومكان . . يكاد يكون ملكا له لقاء كلمة معسولة أو وعد كاذب ! !

كلمة إعجاب يهمس بها فى أذن فتاة فتفقد بعدها أعز ما تملكه فتاة ! !

وعد زائف بالزواج يظل الشاب تحت ستاره يعد الفتاة ويُمنيها . . وما يمنيها الشاب إلاَّ غرورا – وتُغرُ الفتاة وتُخدع . . وتمكنه من نفسها ، وينال منها ما ينال الرجل من امرأته . . بل أكثر ! ! ثم تنتهى حياتها كفتاة شريفة . . وتبدأ حياتها كفتاة ليل ! !

وستظل أزمة الزواج قائمة ما دام العرى سائداً . .

إن الصائدين فى الماء العكر الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا يقيمون الدنيا ويقعدونها ويتساءلون مستنكرين : كيف نعيش فى مدنية القرن العشرين والمرأة محجبة الجسد لا يظهر منها إلا وجهها وكفاها ؟ !

لو علمت فتياتنا – وليتهن يعلمن - أن حل أزمة الزواج فى الحجاب لأسرعن إليه ، إذ كل ممنوع متبوع ، وكل ما تملكه اليد تذدريه العين . . وكل نفيس تصغر قيمته عند الاستحواذ عليه .

وقد تبدو المرأة رائعة فى لباس البحر الذى يكشف عن كثير من جسدها . .

ولكنها تبدو أبدع وأروع حينما لا يظهر من جسدها شىء ؟ فالفضول يدفع الرائى إلى أن يستشف ما وراء الحجاب وما خلف النقاب ، وأنى له أن يرفع ذلك

النقاب إلا بحقه ؟ !

لن يحول بين الشاب وبين التمتع المجانى بجسد المرأة إلا الحجاب الشرعى ، وما أيسره على المرأة ، بل وما أكرمه للمرأة .

قد تبدو كلمة « الحجاب » مظلمة خانقة مخيفة ، تحمل الرق والعبودية إلى المرأة ، وتعود بها القهقرى سنوات وسنوات تعود بها كما يقولون إلى عهد الحريم و « المشربيات » .

ولكن ذلك دهم داهم . فما الحجاب إلا التحصُّن والعفة والكرامة والفضيلة والاحتشام فى الملبس فهو لا يتنافى مع الأناقة ولا يتجافى مع العمل ، وليس معناه أن تكون المرأة بمنأى عن المجتمع قعيدة البيت حبيسة الدار ! ! بل معناه الحشمة والوقار والبعد عن مواطن الإباحية والتحلل والنأى « برأس مال » العفيفات عن أماكن التبذل . .

وماكانت الدعوة فى عصرنا إلى التبرج والتحرير إلا تغريرا بالمرأة واستغلالا لها وتزيينا لسبل الغواية أمام ناظريها لتبور فى النهاية بالبوار والندم .

وما ابتلى مجتمعنا بشىء مثلما ابتلى بالسفور ، فهو فى مقدمة أسباب أزمة الزواج وانصراف شبابنا عن تكوين الأسر .

إن أزمة الزواج الآخذة بالخناق ، خناق الآباء قبل خناق العوانس من الأوانس اللائى فاتهن قطار الزواج . إنما تقع تبعة هذه الأزمة على الدعاة . . دعاة السفور والاختلاط . . دعاة الحرية المطلقة والأقلام الفاضحة والأقلام المسمومة والصحف التى لا ترعى إلاًّ ولاذمة فى شبيبتنا وبراعمنا المتفتحة . . دعاة الكلمة النابية ، والصورة العارية ، والكتاب المكشوف .

إن علاج هذه الأزمة يتقاسمه المصلحون الاجتماعيون . . ثم رجال الدين من أصحاب العلم والفكر والرأى والفضيلة . . وأخيرا الفتاة نفسها .

فرجال الإصلاح دورهم جد خطير ، ومسئولياتهم بالغة ، فهم الذين يقيمون ما اعوج فى المجتمع . . ثم هم الذين يرشدون رجال الإعلام إلى الطرق الواجبة التى يسلكونها لتؤدى مرافق الإعلام مهامها الصحيحة فى التوجيه .

وأحيانا تعترى نفوس الشباب فترات قلق . . وتمر بحياتهم تيارات ريب وشكوك تكاد تؤدى بهم فى متاهات بعيدة مظلمة لولا ما يعصمهم من ومضات استيقاظ ضمير أو بقية من إيمان .

ويتطلع الواحد منهم إلى من يأخذ بيده ويقيله من عثرته وبلبلته فلا يجد إلا من يقدم له تعاليم جامدة مشوهة لا تشفى غلة ولا تطفئ أواراً . . أو يجد متزمتا يزيد فى الهوة العميقة التى يشعر بها الشباب بين مجتمعه وبين دينه السمح فيميت فى نفس الشاب عاطفة التدين ، ويئد فى أعماقه صحوة الضمير ، فيئس . . ويشذ . . ويند وتتحطم أمام عينيه المثل وتتهاوى القيم . .

هنا يأتى دور أصحاب الفضيلة والعلم الدينى . . عليهم أن يواءموا بين الدين والمجتمع ويربطوا بين العقيدة والحياة برباط سليم صحيح . ويمكنوا للعقيدة الخالية من الترهات والخرافات فى العقول والقلوب ، وعندئذ تنفرج الأزمات وتنبخر . .

والفتاة إن طبقت بعد ذلك كله تعاليم رجال الدين والمجتمع وصارت مثالا حيًّا للدين والخلق فإنها بذلك تغرى الشاب بالإقدام ليتسلم منها مفتاح بيت الزوجية السعيد .

الحب . . والوصل . . والمعيّة . . والقرب

الله مع أحبابه . .

والله يحب . . ومن أحبه الله كان مع الله .

(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)[1] (إن الله مع الصابرين)[2] .

ورسول الله ﷺ يقول : « المرء مع من أحب » .

ومعية الله لمن يحبهم . . هى معية خاصة يخص بها أحباءه وأولياءه . . وأهل حضرته وقربه . . هى معية نصر وتكريم . . معية تأييد وحفظ . . معية عناية ورعاية . .

وذلك فضلا عن المعية العامة التى هى معية العلم المحيط الشامل ، والإحاطة

---

(١) آية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) ١٥٣ من سورة البقرة .

العامة التامة الكاملة التى تعلم الحقائق والدقائق والرقائق واللطائف والخفيات والخطرات والهمسات وأحاديث النفس ونجوى القلب . . ودبيب النمل . . هذه المعية العامة تكون للكل وتشمل الجميع ملكا وملكوتا . . وتعم الكون بما فيه ومن فيه (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)[٣] .

ويقول الإمام الراحل محمود شلتوت فى تفسيره ، إن معية الله لخلقه جاءت فى القرآن على أنواع :

• جاءت معية الله للملائكة ، وذلك فى قوله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب)[٤] .

• جاءت معيته للمتقين المحسنين الصابرين : (إن الله مع الصابرين) (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

• جاءت معيته لموسى فيما يحكيه الله عز وجل عنه : (قال : كلا ، إن معى ربى سيهدين)[٥] .

• جاءت معيته لموسى وهارون : (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى)[٦] .

• جاءت معيته للناس جميعا : (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم) (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم)[٧] فهذه المعية معية علم وإحاطة بشئون العباد . . يحصيها ، وينبئهم بها ، ويحاسبهم عليها ، ومعيته للمتقين المحسنين معية رحمة وقرب من لطف الله . .

---

(٣) سورة الملك آية ١٤ (٥) آية ٦٢ من سورة الشعراء

(٤) آية ١٢ من سورة الأنفال (٦) من آية ٤٦ من سورة طه

(٧) الآية ٧ من سورة المجادلة والآية ١٠٨ من سورة النساء .

أما القرب بالذات ، فهو محال . . يقول الإمام القشيرى[٨] : « فأما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه ؛ فإنه متقدس عن الحدود ، والأقطار ، والنهاية والمقدار ، وما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق ، جلّت حمديته عن قبول الوصل والفصل » . .

فقرب هو فى نعته مجال : وهو تدانى الذوات . .

وقرب هو واجب فى نعته : وهو قرب بالعلم والرؤية .

وقرب هو جائز فى وصفه يخصّ به من يشاء من عباده هو قرب الفضل واللطف . .

قرب تجليات « كل على حسب مكانته ودرجته عند الله » .

أما عن كيفية المشاهدة . . والتجليات :

فهى سرٌّ من الأسرار بين العبد وربه ، لا يبوح بها فكيفيتها مجهولة ، وستظل هكذا إلى الأبد . . لا يحسها إلا المقربون ، ولا يعرفها إلا الواصلون المتصلون . . لا تُكتب . . ولا تُسطر ولا تُعلم ولا تُعرف إلا باللفظ . .

قال العارفون : « إفشاء سرّ الربوبية كفر » .

وقال سهل التسترى : للعالِم ثلاثة علوم :

علم ظاهر يبذله . .

وعلم باطن لا يسع إظهاره إلا لأهله .

وعلم هو بينه وبين الله لا يظهره لأحد . .

ومعنى الشاهد : الحاضر فى القلب . فتكون المشاهدة معناها : الحضور القلبى لا الرؤية البصرية يقول القشيرى فى رسالة : من حصل له مع مخلوق تعلق بالقلب

(٨) فى الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٢٣٨.

يقال : إنه شاهده ، يعنى : أنه حاضر قلبه ، فإن المحبة توجب دوام ذكر المحبوب واستيلائه عليه . [جـ ١ ص ٢٤٦]

وعلى هذا حُمل قول رسول الله ﷺ : « رأيت ربّى ليلة المعراج فى أحسن صورة » أى : أحسن صورة رأيتها تلك الليلة لم تشغلنى عن رؤيته تعالى . بل رأيت المصوِّر فى الصورة ، والمنشئ فى الإنشاء . يريد ﷺ بذلك : رؤية العلم ، لا رؤية إدراك البصر .

وألقيت عليك محبة منى

[من سورة طه ، آية : ٣٩]

أسمى وأعلى منزلة . . وأكبر درجة وأكمل مقام فى الدنيا والآخرة ، أن يقول الله لعبده (وألقيت عليك محبة منى).

إن ذلك القول يجل عن الوصف . . إن محبة القوى الجليل للعبد الضعيف الذليل هى جماع الرحمة وفيض اللطف وجميل العطاء ، هى النعمة والمنة والتكريم والفضل (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)[1] .

الله جميل جليل يُلقى على وجوه أحبائه آيات الجمال وحُلل الجلال . . يشع فهم نور العلم وضياء الإيمان على جبينهم سطور المهابة ودلائل اليقين ، ملء أهدابهم وهج النور ، وملء أفواههم الحكمة والقول الفصل ، وحصائد ألسنتهم ترانيم شكر وتراتيل ذكر.. ماوقع نظر الغير عليهم إلا أحبهم وأغرم بهم .. وانقاد لهم ، فهم

(١) آية ٥٨ من سورة يونس

أحباء الله . . أحبهم الله فحببهم إلى خلقه وحبب خلقه فيهم . . يقول الإمام الغزالى[٢] : « إن محبة الله لعبده هى أن يتولى أمره ظاهره وباطنه ، سرّه وجهره ، فيكون هو المدبر لأمره ، المزين لأخلاقه ، المؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته ، الكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام « إذا أحب الله عبدًا جعل له واعظًا من نفسه وزاجرًا من قلبه يأمره وينهاه » وقال عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم : « إذا أراد الله بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه » .

وقال الإمام القشيرى[٣] : « والمحبة حالة شريفة . . شهد الحق سبحانه وتعالى بها للعبد ، وأخبر عن محبته للعبد ، فالحق سبحانه وتعالى يوصف بأنه يحب العبد ، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه . . محبة الله سبحانه للعبد مدحه له وثناؤه عليه بالجميل . . محبة الله للعبد هى إحسان مخصوص يلقى الله العبد به ، وحالة مخصوصة يرقيه إليها » .

وإذا أحب الله عبدا جعله عبدًا ربانيًّا . . يكفل له العطاء والنصر ، ويشمله بالولاية والحماية ، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى حديث قدسى رواه عن المولى عز وجل : « من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن استنصرنى لأنصرنّه . ولئن سألنى لأعطينّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنّه وما ترددت فى شىء أنا فاعله كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه » .

---

(٢) إحياء علوم الدين ص ٢٦٢٩ .

(٣) فى الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٦٦١ . ط دار الكتب الحديثة تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف .

ومن يحبه الله يحبه أهل الأرض ومن فى المساء ، روى أبو هريره أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عز وجل عبدا قال لجبريل : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء : أن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

وفى كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى[٤] ، أن الله قال لداود عليه السلام : « يا داود ، أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى ، وجليس لمن جالسنى ، ومؤنس لمن أنس بذكرى ، ما أحبنى عبد من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حباً لا يتقدمه أحدٌ من خلقى . . من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى . . يا أهل الأرض . . هلموا إلى كرامتى . . وائتنسوا بى أؤانسكم . . وأسارع إلى محبتكم . . » .

وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين : « إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم . . ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم ، ويذكرونى وأذكرهم ، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم . . فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك . . قال : يارب ، وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس ، كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب . . فإذا جنهم الليل . . واختلط الظلام . . وفرشت الفرش . . ونصبت الأسرّة . . وخلا كل حبيب بحبيبه . . نصبوا إلىّ أقدامهم . . وافترشوا إلى وجوههم . . وناجونى بكلامى ، وتملقوا إلى بإنعامى فبين صارخ وباك . . وبين متأوه وشاك . . وبين قائم وقاعد . . وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشتكون من حبى . أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لوكانت السموات والأرض

---

(٤) ص ٢٦٢١

وما فيها فى موازينهم لاستقلالها لهم . . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، فترى – من أقبلت بوجهى عليه – هل يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ » .

التائبون أحباب الله :

(إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[٥] .

نخطئ فى حق الله . . وفى حق أنفسنا . . ونعتدى على حقوق الآخرين . ونقع فى الخطيئة ونهوى إلى الوحل ونتلطخ بأدران الإثم . . ثم يصحو الضمير . . ويستيقظ . .

وتطارد الخطيئة المذنب . . ويتجسم أمام ناظريه شفاعة ما ارتكب وفظاعة ما أجرم وسوء ما عمل عقدة الذنب تتراءى له دوما وتثقل عليه وتكاد تطحنه بضغوطها النفسية . . فتضيق عليه الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه . . فلا يجد إلا الله يثوب إليه ليتوب عليه (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله)[٦] . فيجد فى التوبة ملاذ الطهر . . ويجد فى الأوبة طوق النجاة يوصله إلى بر الأمن والهدوء وراحة البال ويتخلص من عقد الذنب التى عاش تحت وطأتها بعد أن دخل إلى الرحاب الإلهى من باب التوبة وباب التوبة الإلهية مفتوح يدخل منه كل من أجرم واعتدى . وظلم وبغى وفى الحديث : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » ، وقال الله تعالى : (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم)[٧] إن العليم سبحانه لا يترك عباده يحترقون بنار الندم بل فتح لهم أبواب القبول والغفران لينعموا فى رحاب التوبة بالمثوبة والمغفرة ،

---

(٥) البقرة آية ٢٢٢ .

(٦) آل عمران : آية ١٣٥ .

(٧) آية ١٨٧ من سورة البقرة .

والله أعلم بخلقه . . أعلم بهم من أنفسهم : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)[٨] . ويعلم أن ضعفهم وبشريتهم تجذبهم دومًا إلى الوحل والشر والخطيئة والإثم . . وأن نوازع الشر فى أعماقهم تتغلب أحيانًا على منازع الخير . . فدعاهم إلى التوبة : (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون)[٩] (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)[١٠] (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)[١١] والتوبة رجوع إلى الله . . وما أحلى الرجوع إليه . . وما أحب إليه من الراجعين التائبين إليه . . إنه يفرح بهم قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دَوِيَّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه . . فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش قال أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فقال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح . فالله تعالى أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

وأوحى الله إلى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلىّ ، هذه إرادتى فى المدبرين عنى ، فكيف إرادتى فى المقبلين علىّ ، يا داود : أرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى ، وأجلّ ما يكون عندى إذا رجع إلىّ » .

والتائبون أحباب الله : (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وقال رسول الله ﷺ : « التائب حبيب الله » « وإذا أحب الله عبدًا لم يضره ذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

---

(٨) آية ١٤ من سورة الملك .
(٩) آية ٣١ من سورة النور .
(١٠) آية ٨٢ من سورة طه .
(١١) آية ١١ من سورة الحجرات .

الله جميل . . يحب الجمال

[من حديث عن رسول الله ﷺ][١٢]

يقول الإمام الغزالى :

لله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء . .

كمال التقديس والتنزه لا يكون ولا يتصور إلا للواحد الحق ذى الجلال والإكرام . .

الكمال لله وحده ، هو المنفرد بالكمال . . المنزه عن النقص . . المقدس عن العيوب .

والجميل محبوب . .

والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ندَّ له . . الفرد الذى لا ضد له . .

الصمد الذى لا منازع له . . الغنى الذى لا حاجة له .

الذى يحكم ولا راد لحكمه ويقضى ولا معقِّب لقضائه .

الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته .

ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال عيه الصلاة والسلام : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

---

(١٢) الحديث بتمامه : عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة فقال عليه السلام : إن الله جميل يحب الجمال . الكبر : بطر الحق وغمط الناس » .

فالمراد بالجمال : الكمال الإلهى ؛ له وحده الجمال والكمال ، كل أسمائه حسنى وكل صفاته كاملة والكامل – عز وجل – يحب من يسعى إلى الكمال باذلا قصاراه ليتحلى بالإيمان ، ويتجمل بالخُلق ويتزود بالتقوى ، ويتزين بالطاعة ، ويرتفع بالتواضع .

والله جميل ، ومن جميل فعله : عطفه ولطفه ؛ إذ يكلف المؤمنين باليسير من العمل ويثيب على اليسير الكثير ، ويمهل العاصين ، ويحلم على الآثمين : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى)[١٣] .

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة)[١٤] .

(لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب)[١٥] .

إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص

[من سورة الصف : آية ٤]

سبيل الله : دينه وعقيدته .

وللعقيدة أعداء يضمرون لها الشر ويبيتون لها المؤامرات والمناورات بليل ، محاولين أن يزلزلوا عقيدة الله فى نفوس معتنقيها ، وأن يشككوا المؤمن فى إيمانه ، وأن يصرفوا الخلق عن الخالق ، وأن يبعدوا الناس عن دين رب الناس (إن الدين عند الله الإسلام)[١٦]

وللعقيدة أنصار . . وللدين حماة ودعاة يجاهدون الباطل ويجابهون أعداء الله فى قوة وشجاعة وبسالة وإقدام ، فى وحدة واحدة . . فى صف واحد لا ينهزم

---

(١٣) آية ٤٥ من سورة فاطر
(١٤) آية ٦١ من سورة النحل
(١٥) آية ٥٨ من سورة الكهف .
(١٦) آية ١٩ من سورة آل عمران .

ولا ينهدم ولا ينهار لا يعرف الجبن ولا يعرف الفرار . . صف تربطه القوة وتدعمه الشجاعة وتشده البسالة والإقدام .

والشجاعة والبسالة والإقدام كلها فضائل يحمدها الله . والقوة فضيلة يحبها الله ، ورسول الله ﷺ يقول : « المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف » فالله يحب المؤمن القوى ، ويكره الضعف ، ويمقت الضعيف الذى يهرب من الميدان ، ويخاف المجابهة ويهاب المواجهة واللقاء . . ؟ إذ الضعف والخور والجبن ولين العزم دليل على ضعف الإيمان وعلى وهن اليقين .

فالمؤمن : قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)[17] ، (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانًا وتسليمًا)[18] .

هؤلاء الذين يقاتلون فى سبيل نشر دين الله وإعلاء كلمة الله ، وتوحيد الكلمة على كلمة التوحيد . .

هؤلاء الذين يجابهون الموت فى سبيل حياة العقيدة ونشر الدين . .

هؤلاء الذين استرخصوا الروح وباعوا النفس ليمكّنوا للعقيدة فى الأرض ويرسخوا أصولها فى الأفئدة . .

هؤلاء الذين اعتقدوا – فى حق – أن الإقدام لا يقصر الأجل وأن الجبن لا يطيل العمر . .

هؤلاء هم أولياء الله وأنصاره . . ودعاته . . وحملة رسالته بعد أنبيائه .

هؤلاء المقاتلون الموحدون . . هؤلاء يحبهم الله (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص) .

---

(١٧) آية ٢٩ من سورة الفتح . (١٨) آية ٢٢ من سورة الأحزاب .

إن الله يحب المتقين .

[آية ٤ من سورة التوبة]

المتقون الأوفياء أحباب الله ، يقول الله : (بلى من أوفى بعده واتقى فإن الله يحب المتقين)[١٩] .

والتقوى : هى الحيطة والحذر وتجنب الضرر ، وابتعاد المسلم عن كل ما يلحق به المضرة والأذى .

هى طاعة الله وذكر دائم له ، وشكر لآلائه ونعمه ومعطياته . .

هى أن يطاع المولى فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويشكر فلا يكفر .

هى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله .

والتقوى كلمة جامعة ، لها أبعاد ، ينبثق منها دلالات ومدلولات . . ويتفرع منها نواحى ومناحى .

وأبعاد التقوى تمتد حتى تغطى جوانب العقيدة والعبادات والمعاملات والسلوك والأخلاق . تؤخذ هذه الأبعاد من قول المولى سبحانه (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون)[٢٠] .

فالإيمان بالغيب هو الجانب الذى يتصل بالعقيدة . وإقامة الصلاة : هو الجانب الذى يتصل بالعبادات والتشريع والإنفاق هو الجانب الذى يتصل بالمعاملات والحقوق المالية والالتزامات المادية . ومن ناحية السلوك فإنه يستدل على تقوى الرجل بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ،

---

(١٩) آية ٧٦ من سورة آل عمران . (٢٠) آية ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة البقرة .

وحسن الصبر على ما قد فات . . وهذه الجوانب هى صفات المتقين ، إذا تجمعت شكّلت المؤمن المتقى ، وكونت شخصيته ، ولوّنت سلوكه وأنتجت ثمارها ونتاجها ، وقادته فى النهاية إلى محبة الله .

فمن نتاج التقوى : البركة (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض)[٢١].

والعلم : (واتقوا الله ويعلمكم الله)[٢٢] .

وصلاح الأهل والذرية : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدًا)[٢٣] .

والخروج من كل كرب وسعة الرزق (ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب)[٢٤] .

والنجاة فى الآخرة من النار : (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا)[٢٥] .

والفوز بالدرجات والمنازل العالية : (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار)[٢٦] .

ولهم جنان وحدائق وجنات وأنهار : (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار)[٢٧] .

---

(٢١) آية ٩٦ من سورة الأعراف .
(٢٢) آية ٢٨٢ من سورة البقرة .
(٢٣) آية ٩ من سورة النساء .
(٢٤) آية ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .
(٢٥) آية ٧٢ من سورة مريم .
(٢٦) آية ٢٠ من سورة الزمر .
(٢٧) آية ١٥ من سورة آل عمران .

ثم لهم فى النهاية محبة الله:(والله يحب المتقين) ومعيته لهم (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)[٢٨] ، (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)[٢٩] .

والله يحب الصابرين

أهل الصبر هم أهل الله يحبهم الله .

والصبر ثبات ، وحبس ، ومنع :

حبس النفس عن الجزع ، وثبات فى مواطن الشدة ، ومنع النفس عن الانقياد لرغباتها ورغائبها . وجميع خلال الخير وخصال البر وأصول الطاعة ، وما جعل الله فى الإنسان من حسن الشيم وكرم الأخلاق ودواعى الإيمان إنما هى كلها مرتبطة بالصبر وراجعة إلى الصبر .

فالشجاعة : صبر فى الحرب على القتال ، وبُعد وصبر عن الجبن .

والكرم : صبر على مفارقة المال ، وبُعد وصبر عن البخل .

والصدق : صبر على الحقائق وإن كان وراءها ما وراءها .

والعفة : صبر عن شهوة البطن والفرج .

والحلم : صبر على كظم الغيظ .

وكتمان السر : صبر على إخفاء الكلام .

والزهد : صبر وبعد عن فضول العيش . .

وهكذا نجد أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة فى الصبر .

وغاية الصبر : الله . يقول الله : (ولربك فاصبر)[٣٠] لربك - وحده - لا لغيره يكون صبرك . . لا لكسب ثناء الناس أو لقولهم إن فلانًا صابر ،

---

(٢٨) آية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢٩) آية ١٩٤ من سورة البقرة .

(٣٠) آية رقم ٧ من سورة المدثر

ولا للسمعة ، بل يجب أن يكون الصبر خالصًا لله ولوجه الله واستعن بالله ليعينك على الثبات ويقوِّيك على الصبر : (واصبر وما صبرك إلا بالله)[٣١] . فالصبر بالله استعانة ، والصبر لله غاية .

ألوان الصبر :

هناك صبر عن المعاصى ، بالبعد عنها .

وصبر على الطاعة بالثبات والدوام على تكاليفها وأعبائها : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها)[٣٢] ، (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته)[٣٣] .

فالصبر صبران : صبر على الشيء ، وصبر عن الشيء – بمعنى ابتعد وفرّ – وأشقهما الثانى ؛ ذلك أن الصبر على الشيء فى الغالب محدود المدة قصيرها ، وذلك ربما ينتهى وقت ذلك الشيء ، وأما الصبر عنه ، فهو دائم متكرر متجدد كلما سنحت فرصة .

نتائج الصبر :

• الصبر خير : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)[٣٤] .

• والبشارة والمدد الإلهى للصابرين : (وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)[٣٥] .

---

(٣١) آية رقم ١٢٧ من سورة النحل (٣٣) آية رقم ٦٥ من سورة مريم .
(٣٢) آية رقم ١٣٢ من سورة طه . (٣٤) آية رقم ١٢٦ من سورة النحل
(٣٥) آية رقم ١٥٥ من سورة البقرة ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

• وجزاء الصابرين قرره القرآن حيث قال : (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا)[٣٦] .

• وجزاء الصابرين محبة الله ، فالصابرون أحباب الله يقول الله : (والله يحب الصابرين)[٣٧] . والله يحب المتقين : (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)[٣٨] .

والتقوى والصبر كل منهما مرتبط بالآخر لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه ، فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله ، فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كانت التقوى أعلى المقامات ؟ إذ الأتقى هو الأكرم ، والأكرم هو الأفضل .

إن التقوى والصبر هما اللذان ارتفعا بيوسف عليه السلام إلى أعلى المقامات : (قال : أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)[٣٩] .

والتقوى معنى جامع لكل خير ، والصبر معنى داخل فى كل برّ ، فإذا اجتمعا لإنسان كان من المحسنين ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم النبي بن النبي بن النبي بن النبي لم يغن عنه كرم أصله ولا عراقته فى النبوة ، إنما الذى أغناه ونفعه : هما التقوى والصبر . صبره عن الاستجابة إلى امرأة العزيز ، وتقواه ؛ إذ سجن وضحى بدنياه من أجل دينه وعقيدته ، صبر عن المعصية اختيارًا وإيثارًا لما عند الله .

---

(٣٦) آية رقم ١٢ من سورة الإنسان .

(٣٧) آية رقم ١٤٦ من سورة آل عمران .

(٣٨) آية رقم ٩٠ من سورة يوسف .

(٣٩) آية رقم ٩٠ من سورة يوسف .

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه

إن ذلك الذى يعبّ من الخطايا عبًّا إنما يعيش لوقته ، لا يذكر أمسه ، ولا يفكر فى غده ومستقبله هو ابن الوقت الذى يعيشه ويحياه ، لا يحسب حسابا لآخرته ، ولا لساعة موته ؛ فهو دوما ما يعتقد أن الموت بعيد عنه ، حتى ولو كان فى أشد حالات الوجع والألم ، فالأمل يحدوه ويدفعه إلى اعتقاده بأن منيته بعيدة ، لذلك يماطل ويسوّف ويؤخر الرجوع إلى الله ويؤجل الصلح مع خالقه ومولاه . يقول : مازال فى الأجل بقية وما زلت فى مقتبل العمر ومكتمل الشباب كلى قوة وفتوة ، فلأستمتع بأيامى .

وفجأة يجد نفسه قد انتقل من عالم إلى آخر ومن أجواء إلى أجواء يجد نفسه بين يدى خالقه خالى الوفاض صفر اليدين يقلب كفيه حسرة وندمًا على حياة أنفقها فيما لا خير فيه (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب

والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)[1] .

والمؤمن الحق يجد ويكد ويعمل لدنياه وأخراه ، ويزرع هنا ما يجنيه هناك ، مقدم لعاقبته صالح العمل وعمل الصالح فهو مؤمن آمن لا يكره الموت وإنما ينتظر وقوعه بغتة فى أية لحظة . .

قال رجل من الأنصار لرسول الله ﷺ : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟

فقال : « أكثرهم ذكرا للموت ، وأشدهم استعدادا له ، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » .

حقًا . . إن الأحياء الذين ينتظرون الموت هم موتى فى طريقهم إلى الحياة.

عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : إن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ وهو يبكى ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : كيف أصبحت يا معاذ ؟ قال : أصبحت مؤمنًا حقًا . فقال النبى عليه الصلاة والسلام : إن لكل قول مصداقًا ، فما مصداق ما تقول ؟ قال : يا نبى الله ، ما أصبحت صباحًا قط إلا ظننت ألا أمسى ، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت ألا أصبح ، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت ألا أتبعها أخرى ، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التى كانت تعبد من دون الله ، وكأنى أنظر إلى عقوبة أهل النار ، وثواب أهل الجنة . قال ﷺ : عرفتَ فالزم .

وروى أنس بن مالك قال : بينما رسول الله ﷺ يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار ، فقال له النبى ﷺ : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقًا . قال : انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة . فقال : يارسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، فكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأنى

(١) آية ٨ من سورة الجمعة .

أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتزاورون وإلى أهل النار فى النار يتعادون . فقال عليه الصلاة والسلام : « أبصرت فالزم ؛ عبد نوَّر الله قلبه » .

وقال ابن عطاء الله فى حكمه : لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها . . ولرأيت محاسن الدنيا وقد ظهرت كِسْفة الفناء عليها . . نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هى عليه ، فيحق به الحق ويبطل به الباطل ، والآخرة حق والدنيا باطل .

فإذا أشرق نور اليقين فى قلب العبد أبصر به الآخرة التى كانت غائبة عنه حاضرة لديه ، حتى كأنها لم تزل ، فكانت أقرب إليه من أن يرحل إليها . . فحق بذلك حقها عنده .

وأبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها ، وأسرع إليها الفناء والذهاب فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة ، فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن . .

فيوجب له هذا النظر اليقينى الزهادة فى الدنيا والتجافى عن زهرتها والإقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها . ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال النبى ﷺ : « إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح . قيل : يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : نعم ، التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فأكب القوم يبكون . . ! ! قال : ما يبكيكم ؟ قالوا : كلنا نكره الموت . قال : ليس ذلك — ولكنه إذا حضر فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، فإذا بُشّر بذلك أحب لقاء الله ، والله للقائه أحب ، وأما إن كان من المكذبين فنزل من حميم وتصلية جحيم فإذا بُشّر بذلك كره لقاء الله .

والله للقائه أكره »[٢] .

قال الإمام الغزالى فى الإحياء[٣] إن التائب يكثر من ذكر الموت ، لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيبقى بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد . وهو معذور فى كراهة الموت . ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه . فلا يعد كارها للقائه .

---

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) المجلد الخامس عشر ص ٢٨٣٨ .

الودود

(إن ربى رحيم ودود) [آية ٩٠ من سورة هود]
(وهو الغفور الودود) [من آية ١٤ من سورة البروج]

الودود : اسم من أسماء الله الحسنى .

والود : الحب ، ومعنى الودود : المحب للمؤمنين الذى يودهم ويودونه ويحبهم ويحبونه ، والراضى عن عباده المؤمنين المتحبب إلى أوليائه بمعرفته ، وإلى المذنبين بعفوه ورحمته ، وإلى العوام برزقه وكفايته .

وفى تفسير هذا الاسم الإلهى يقول صاحب كتاب « الأنوار القدسية فى شرح أسماء الله الحسنى وأسرارها الخفية »[1] : « الودود هو الذى يحب الخير والإحسان لعباده ويواليهم بأيادى الإنعام ابتداء وختمًا ، والودود أنواره خاصة بأهل السعادة الأزلية ، فإن الود هو المحبة ومحبته تعالى أزلية سابقة ، قال تعالى : (إن الذين آمنوا

(١) تأليف أحمد سعد العقاد ، وتحقيق محمد سليمان فرج وتقديم الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود .

وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً)[٢] .

ومن علامات المودة لله أن تحب من يحبهم الله من الأنبياء والأولياء والعلماء ، وتحب محاب الله ومراضيه من أعمال البر والتقوى وفعل الخيرات وحسن المعاملات .

وقد ذُكر الودود سبحانه مرتين فى القرآن الكريم فى سورة هود ، حيث يقول الله تبارك وتعالى (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود)[٣] وفى سورة البروج حيث قال سبحانه (وهو الغفور الودود)[٤] .

ويقول الدكتور حسن عز الدين الجمل فى كتابه (أسماء الله الحسنى) : الودود ، من الود وهو الحب ، وسبحان المحب للمؤمنين وهو المحبوب لهم . ومحبة الله لعباده رحمته إياهم ، ومحبة المؤمنين لله طاعتهم له ، وطاعة الله رحمة من الله .

والله نور السموات والأرض ، فمن أصابه من ذلك النور فقد سبق له من الله الهدى .

وقيل فى معنى الودود : أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لِما عرفوا من كماله فى ذاته وصفاته وغفرانه تعالى وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلَّ ذكره إذا أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإذا أحبه عباده العارفون فلِما تقرر عندهم من كريم إحسانه .

أما الإمام المفسر فخر الدين الرازى فإنه فى كتابه «لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات» بعد أن شرح اسم الله الودود قال فى الصفحات الأولى من كتابه هذا إن الناس اختلفوا حول تحديد اسم الله الأعظم ، فقال بعضهم إن الاسم

---

(٢) من سورة مريم آية ٩٦ .

(٣) آية رقم ٩٠ من سورة هود .

(٤) آية ١٤ من سورة البروج .

الأعظم لله ليس اسما معينا معلومًا ، بل كل اسم يذكر العبد به ربه حال ما يكون مستغرقا فى معرفة الله تعالى فينقطع الفكر والعقل عن كل ما سواه فذلك الاسم هو الاسم الأعظم .

ثم ساق الإمام الرازى أدلة وبراهين أصحاب هذا الرأى .

كما أورد الإمام الرازى بعد ذلك حججج من قال إن اسم الله الأعظم هو (الله) وأورد من الحجج فى هذا المجال إحدى عشرة حجة .

وبعد أن أورد الإمام الرازى عدة آراء أخرى حول اسم الله الأعظم خلص فى النهاية إلى ترجيح الرأى الأول فقال : إن الله سبحانه يعرف ذاته معرفة حقيقية ذاتية ، لا عرضية ، فإذا نوّر الله قلب بعض عبيده بتلك المعرفة لم يبعد أيضا أن يطلعه على اسم تلك الحقيقة المخصوصة ، وعلى هذا التقدير ، يكون ذلك الاسم أخص الأسماء وأشرفها وأعلاها وهو الاسم الأعظم الذى لا يبعد أن ينطاع به كل ما فى السموات وما فى الأرض .

والإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود له رأى فى هذا المجال يقترب من هذا الرأى الذى ساقه الإمام الرازى وارتضاه ، فهو يقول[٥] :

« وهذه الأسماء – أى أسماء الله الحسنى – بحور أنوار ، ومواطن أسرار يغترف منها كل مسلم بحسب صلته بالله سبحانه ، وتفكره فى عظمته ، وتحققه بعبوديته ، ويعرف منها كل مؤمن بحسب ما هيأ الله له من وسائل المعرفة وبسط له من ألوان القرب والتوفيق » .

---

(٥) فى تقديمه لكتاب (الأنوار القدسية ، فى شرح أسماء الله الحسنى وأسرارها الخفية) .

لقاء . . حول الحب

وكان هناك لقاء حول الحب ، بين أستاذ وتلميذه ؛ أستاذ عارف عالم مراد ، وتلميذ فقيه محب مريد . .

بادئ ذى بدء كانت خصومة ، أو بالأحرى ، كانت الخصومة من جانب التلميذ وحده . . وكان منه إنكار . . واعتراض . . كل ذلك كان من قِبل التلميذ قبل أن تتوثق صلة بأستاذه ، وقبل أن تتقلب عداوته لأستاذه إلى محبة . . ومحبة جارفة عارمة . .

كان ذلك بادئ ذى بدء . . ثم كان لقاء بينهما ظللته المحبة ، واعترف التلميذ لأستاذه بالحب وأقرَّ الأستاذ المحبوب لمحبه ومريده بالود .

كان التلميذ هو « ابن عطاء الله السكندرى » وكان الأستاذ هو (أبو العباس المرسى) ويقص ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه (لطائف المنن) قصة صلته هذه

بأبى العباس المرسى ، وموقفه منه ثم محبته له ، فيقول[1] :

كنت لأمره–أى لأمر الشيخ أبى العباس المرسى–من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشىء سمعته منه ، ولا لشىء صح نقله عنه ، ولكن جرت المخاصمة بينى وبين أصحابه ، فقلت فيهم قولاً عظيماً . . ثم قلت فى نفسى : دعنى أذهب أنظر هذا الرجل ، فصاحب الحق له أمارات . . لا يخفى شأنه . . فأتيت إلى مجلسه ، فوجدته يتكلم فى الأنفاس ، ومسألة درجات السالكين إلى الله ، ومدى معرفتهم به وقربهم منه فقال :

الأول : إسلام ، وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسم الشريعة .

وثانيها : الإيمان ، وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية .

وثالثها : الإحسان ، وهو مقام شهود الحق تعالى فى القلب .

وإن شئت قلت : الأول عبادة ، والثانى ، عبودية ، والثالث عبودة .

وإن شئت قلت : الأول شريعة ، والثانى حقيقة ، والثالث تحقق .

فمازال يقول : وإن شئت قلت . . وإن شئت قلت إلى أن بهر عقلى وسلب لبى ، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى : فأذهَبَ الله ما كان عندى .

ثم أتيت تلك الليلة إلى منزلى فلم أجد فىَّ شيئًا يقبل الاجتماع بالأهل ، كعادتى ! ! ووجدت معنى غريبا لا أدرى ما هو ! ! .

فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وكواكبها ، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته ، فلمس قلبى أشياء لم أعرفها من قبل ، فحملنى ذلك على العودة إليه مرة أخرى ، فأتيت إليه ، فاستؤذن لى عليه ، فلما دخلت إليه قام قائما وتلقانى ببشاشة

(١) ص ٨ من كتاب لطائف المنن تأليف ابن عطاء الله السكندرى وتحقيق الإمام المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود .

وإقبال حتى دهشت خجلا ، واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك .
فكان أول ما قلت له : أيا سيدى ، إنى والله أحبُّك .
فقال : أحبَّك الله كما أحببتنى .
ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان ، فقال :
أحوال العبد أربع لا خامسة لها ، النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية .
فإن كنت فى النعمة فمقتضى الحق منك الشكر .
وإن كنت فى البلية فمقتضى الحق منك الصبر .
وإن كنت بالطاعة ، فمقتضى الحق منك شهود مِنته عليك .
وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار .
وعندئذ قمت من عنده ، وكأنما كانت الهموم ثوبا نزعته ،
ثم سألنى بعد ذلك بمدة : كيف حالك !
فقلت : أفتش عن الهم فلا أجده ، فقال :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف[٢] الظلام ونحن فى ضوء النهار

إلزم ، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيًا فى المذهبين ، فى علوم الظاهر وحقائق الباطن .

---

(٢) السدف . الظلمة .

غدا . . نلقى الأحبة

جثم الظلام على مدينة « عمواس » ببلاد الشام . . فاتجه بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ إلى فراشه وأطبق جفنيه ، فطوقه سلطان الكرى بذراعيه ، فراح فى سبات عميق . .

ونام الكون ، وهدأ كل شىء . . وظل بلال يغط فى نومه ، ثم تململ فى رقدته وانبسطت أسارير وجهه وولدت على شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن الغبطة ؟ فقد رأى فى منامه النبىَّ الحبيب عليه الصلاة والسلام مقبلا نحوه وعليه ثياب بيض ، فأسرع إليه ، وسلم عليه ، ووقف معه والغبطة تشيع فى نفسه ، والسرور يداعب قلبه ، وتحركت شفتا النبى ﷺ ، فأرهف بلال سمعه ، فقال النبى ﷺ معاتبا : « ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورنا ؟ » فهبَّ بلال من نومه وصدى كلمات النبى ﷺ يرن فى أذنيه : ما هذه الجفوة يا بلال ؟ ما هذه الجفوة

يا بلال ؟ ، فاجتاحته موجة من الأسى ووقع فى نفسه حزن ثقيل ، وغمغم : جفوة ؟ لا يا رسول الله . . انقضت سنون ولم أزر قبرك ، ولكنها ليست بجفوة ، فما غاب رسمك عن عينى ، وما نسيتك لحظة ، أو ونت شفتاى عن ترديد اسمك ، أو قصر لسانى فى الصلاة عليك . لا يا رسول الله إنها ليست بجفوة ، سأشد الرحال من فورى ، وسأنطلق إلى يثرب مدينتك المفضلة ؛ لزيارة قبرك .

وابتدأ مولد النهار . . وبان فى الأفق البعيد بصيص من نور ، فخرج بلال مسرعًا واتجه إلى راحلته وامتطاها وزجرها فهمت لتندفع صوب مدينة الرسول عليه أفضل الصلوات والتسليمات . .

وبان له قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، فازداد وجيب قلبه وازداد اضطراب نفسه ، وازداد حنينه . . وجدَّت راحلته فى السير حتى بلغت باب القبر ، فأناخها ونزل عنها ، وتقدم فى خشوع ، ثم دلف من الباب ، ولما أصبح أمام القبر اضطرب ، وهتف بصوت تخنقه العبرات : السلام عليك يا رسول الله .

وأحس غصة فى حلقه ، وترقرق الدمع فى عينيه ، ثم سال على خديه وأطرق صامتا ، وراحت روحه تهيم فى سماء الذكريات ، فتذكر النبى ﷺ ومشاركته له فى السراء والضراء فى العسر واليسر ، فى الإقامة والظعن ، فى الحرب والسلم ، فاطمأنت نفسه ، وخمدت نار شوقه ، وشعر بهدوء وارتياح وتصرم الوقت وما أحس بلال انقضاءه ، فقد كانت روحه متصلة بروح النبى الحبيب عليه أفضل الصلاة والتسليم واستمر فى إطراقه ، وابتدأ الليل ينشر أجنحته على الكون وبلال فى مكانه لا يحس شيئا مما حوله ، ثم سمع صوتا يهتف : بلال . . بلال .

فأفاق من غمرته ، ورفع رأسه ، والتفت نحو مصدر الصوت ، فرأى الحسن والحسين ، فتجددت أشجانه ، وترقرق الدمع فى عينيه ، وأسرع إليهما وراح يضمهما إلى صدره ويقبلهما ويغمغم : كلما رأيتكما ذكرت بكما رسول الله ﷺ .

ومكث بلال بيثرب ما شاء الله له أن يمكث . . ثم شاء العودة إلى الشام . .

واستأنف بلال حياته فى الشام وفى يوم من الأيام أحس ضعفًا واعتلالاً ، فلزم داره . . وازداد الضعف على الأيام . . وازدادت وطأة المرض عليه . . فأصبح صدره يعلو وينخفض . . وجلست زوجته بجواره تمرضه فألفته يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وفتح عينيه ، فسألته :

– كيف تجدك ؟

فغمغم :

– دنا الفراق .

– ونظر أمامه ، فخيل له أنه يلمح أشباحًا ، ثم تجسدت الأشباح فصارت أناسًا يعرفهم ويعرفونه يحبهم ويحبونه . . وقفوا عند فراشه ينتظرونه ، فهذا محمد ﷺ . . وهذا أبو بكر وهؤلاء أصحابهما الراحلون يدعونه ليلحق بهم . فارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ما لبثت أن اختفت . . ثم زفر زفرة شديدة ، وأسبل عينيه ، وألقى رأسه على صدره ، فصكّت زوجه وجهها ، وأهّتْ آهة ، وهتفت : واحزناه ! !

فغالب بلال ضعفه ، وفتح عينيه ، وغمغم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

– بل وافرحتاه . . غدًا نلقى الأحبة : محمدًا وصحبه[1] .

---

(١) بتصرف من كتاب « بلال مؤذن الرسول » تأليف : عبد الحميد جودة السحار .

حكايات . . عنهم

هى حكايات حكتها الأيام . . ولونتها الأحداث بما يشبه الأساطير عن هؤلاء الذين وصل بهم الوله والولع والفناء فى المحبوب والتفانى فى الحب إلى درجة لو وضعناها تحت مجهر العقل لأنكرها العقل . . وردّها . . وتردد فى قبولها ؛ لأنها – فى رأيه – تخرج عن عقال العقل إلى نطاق اللامعقول : نطاق الجنون . . جنون الحب ومجانين العشق .

وغاب عن العقل وأصحابه العقلانيين أن الحب صانع الغرائب والعجائب والمعجزات ، ولا دخل للعقل فى الحكم على الخوارق ، والكرامات ، بله المعجزات .

ومهما كان الأمر بالنسبة للحكم على هذه الأقاصيص والحكايات وعلى أصحابها ، فالإجماع منعقد على أنها ثروة من تراثنا التاريخى . . والإيمانى . .

لا مجال لإنكارها أو إنكار حوادثها وأحداثها أو الطعن فى شخوصها بل ولا مجال لتغيير بنائها أو التعديل فى وقائعها – أو حتى تغيير أسلوبها لأن التاريخ شاهدها وشهد لها وسجّل . . وحافظ . .

وسنعرض هنا لونا من هذه الألوان القصصية التى خلع العقل عليها صفة « الجنون » ووصف أصحابها بأنهم مجانين الحب . . وكل قصارانا فى عرضها أننا سننفض عنها غبار التاريخ والقِدم ، وسنعرضها بثوبها العتيق الذى زُفَّتْ به إلينا . . يفوح منه عبق التاريخ ورائحة الماضى العتيق ، وسنعرضها محافظين على النص كما ورد إلينا وعلى الأسلوب كما جاء لنا . . اللهم إلا من مقولة نقول فيها للعقل : ترفّق . . وتمهل . . بل وتقبل هاتيك الأقاصيص فإنها قصص للواصلين الملهمين التائهين الهائمين الذين كسروا القيود ، واجتازوا الحدود ، مضحين بكل شىء عازفين عن كل شىء ، عازمين على شىء واحد هو أن يصلوا . . فوصلوا . . والواصلون قليل ماهم ، والقليل – عادة – خارج عن دائرة الحكم العقلى ولو حكّم العقلُ عقله ورجع إلى القصص الخمسمائة التى حكاها كتاب « روض الرياحين فى حكايات الصالحين »[1] لرجع عن حكمه ، وطامن من هامته ولأقر لذوى الفضل والصلاح والولاية والهداية ، والوصل والقرب من شخوص هذه القصص بما سجّل لهم التاريخ من حكايات تشده وتدهش تنم عن صلاحهم وإصلاحهم . . ووصولهم . . ووصالهم . . وقربهم من الباب والأعتاب والرحاب والأحباب . . يقول سرى السقطى[2] سهرت ليلة من الليالى . . وقلقت قلقًا

(١) هو كتاب روض الرياحين فى حكايات الصالحين الملقب بـ « نزهة العيون النواظر وتحفة القلوب الحواضر فى حكايات الصالحين والأولياء والأكابر » تأليف الإمام أبو محمد بن أسعد اليافعى . وأودع المؤلف كتابه خمسمائة حكاية وخمسة فصول فى كرامات الصالحين والرد على بعض الفقهاء الذين أنكروا بعض هذه الأقاصيص .

(٢) ص ١٠٦ من المرجع السابق .

شديدا . . فلم أطق الغمض مع ما حرمته من التهجد . . فلما صليت صلاة الصبح خرجت لا يقر لى قرار ، فوقفت فى الجامع أستمع بعض القُصَّاص ؛ لعلى أجد لقلبي راحة ، فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة ! !

فمضيت ووقفت ببعض الوعاظ فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة ! !

فقلت أمضى إلى بعض أطباء القلوب ومن يُدل المحبَّ على المحبوب ، فمضيت فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة ! ! .

فقلت أمضى إلى أهل الشرطة أعتبر بمن يعاقب فى الدنيا ، فمضيت ، فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة ! ! فقلت أمضى إلى . . المارستان[٣] لعلى أتروع وأنزجر بمن ابتلى ، فلما ولجت المارستان وجدت قلبي قد انفسح ، وصدرى قد انشرح ، وإذا أنا بجارية من أنضر الناس وجها ، عليها أطمار[٤] حسنة رفيعة ، وشممت منها رائحة عطرية عفيفة المنظر ، وسيمة الخطر[٥] ، وهى مقيدة الرجلين ، مغلولة اليدين . . فلما رأتنى تغرغرت عيناها بالدموع ، وأنشأت تقول :

أعيذك أن تغل يدى بغير جريمة سبقت
تغل يدى إلى عنقى وما خانت وما سرقت
وبين جوانحى كبد أحسُّ بها قد احترقت
وحقك يا منى قلبي يمينًا برةً صدقت
فلو قطعتها قطعا وحقك ، عنك ما رجعت

قال السَرىّ – رضى الله عنه – فلما سمعت كلامها قلت لصاحب المارستان :

---

(٣) دار مرضى العقول .

(٤) أى : أثواب .

(٥) الخَطَر من معانيه : الشرف ، والقدر .

ما هذه ؟ قال : مملوكة اختل عقلها ، فحبسها مولاها ، لعلها تنصلح . .

فلما تم كلام القيِّم (صاحب المارستان) اغرورقت عيناها بالدموع ، ثم جعلت تقول :

معشر الناس ، ما جُننتُ ، ولكن ... أنا سكرانة وقلبي صاحي
أغلقتم يدى ولم آت ذنبا ... غير جهدى فى حبه وافتضاحى
أنا مفتونة بحب حبيب ... لست أبغى عن بابه من براحى
فصلاحى الذى زعمتم فسادى ... وفسادى الذى زعمتم صلاحى
ما على من أحب مولى الموالى ... وارتضاه لنفسه من جناح

قال السرى : فسمعت كلاما أقلقنى وأشجانى ، وأحرقنى وأبكانى ، فلما رأت دموعى قالت : يا سرى ، هذا بكاؤك على صفته ، فكيف لو عرفته حق معرفته . . ؟

ثم أغمى عليها ساعة ، فلما أفاقت قالت :

ألبستنى ثوب وصل طاب ملبسه ... فأنت مولى الورى حقًّا ومولانى
كانت بقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت ، مذ رأتك العين ، أهوانى
من غص داوى بشرب الماء غصته ... فكيف يصنع من قد غُصَّ بالماء ؟ !
قلبي حزين على مافات من زلل ... والنفس فى جسدى من أعظم الداء
والشوق فى خاطرى منى وفى كبدى ... والحب منى مصون فى سويدائى
إليك منى قصدت الباب معتذرا ... وأنت تعلم ما ضمته أحشائى

فقلت لها : يا جارية .

قالت : لبيك ياسرى . .

قلت : من أين عرفتيني ؟

قالت : ما جهلت مذ عرفت ، ولا فترت مذ خدمت ، ولا انقطعت مذ وصلت ، وأهل الدرجات يعرف بعضهم بعضا .

قلت : أسمعك تذكرين المحبة ، فمن تحبين ؟

قالت : لمن تعرف إلينا بنعائه ، وجاء علينا بجزيل عطائه ، فهو قريب إلى القلوب ، مجيب لطلب المحبوب ، سميع ، بديع ، عليم ، حكيم ، جواد ، كريم ، غفور ، رحيم .

فقلت لها : من حبسك ها هنا ؟

قالت : حاسدون تعاونوا ، وتعاقدوا ، وتراسلوا .

ثم شهقت شهقة حتى ظننت أنها فارقت الحياة ، ثم أفاقت وأنشدت تقول :

قلبي أراه إلى الأحباب مرتاحا ... سكران من راح حب ، بالهوى باحا
يا عين جودى بدمع خوف هجرهم ... فربّ دمع أتى للخير مفتاحا
وربّ عين رآها الله باكية ... بالخوف منه تنال الروح والراحا
لله عبد جنى ذنبا فأحزنه ... فبات يبكى ويذرى الدمع سفاحا
مستوحش خائف مستيقن فطن ... كان فى قلبه للنور مصباحا

فقلت : لقيمٌ المارستان : أطلقها . ففعل .

فقلت : اذهبي حيث شئت .

قالت : يا سرى ، إلى أين أذهب ، وما لى عنه مذهب ، إن حبيب قلبي قد سلكنى لبعض مماليكه ! ! فإن رضى مالك ذهبت ، وإلا صبرت واحتسبت .

قلت : هذه والله أعقل منى .

وبينما هى تخاطبنى إذ دخل مولاها ، فقال للقيّم : أين تُحفة ؟

قال : هى فى الداخل ، وعندها سرى السقطى رضى الله عنه . ففرح ، ودخل ، وسلم على ورحب بى ، وعظّمنى . .

فقلت له : هى أولى بالتعظيم منى ، فما الذى تكره منها ؟

قال : أمور كثيرة ؟ فهى لا تأكل ، ولا تشرب ، ذاهلة العقل ، مدهوشة اللب ، ولا تنام ولا تدعنا ننام ! ! كثيرة الفكرة سريعة القبرة ، ذات زفرة ، وحنين ، وبكاء وأنين ، وهى بضاعتى اشتريتها بكل مالى بعشرين ألف درهم ، وأمّلت أن أربح فيها مثل ثمنها ؛ لحسن صنعتها .

قلت : وما صنعتها ؟ .

قال : مطربة .

قلت : ومذ كم كان بها هذا الداء ؟

قال : منذ سنة .

قلت : وماكان بدؤه ؟

قال : بينما العود فى حجرها وهى تغنى وتقول :

وحقك لا نقضت الدهر عهدًا ولاكدّرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحى والقلب وجدًا فكيف ألذ أو أسلو أو أهدا
فيا من ليس لى مولى سواه تراك تركتنى فى الناس عبدا

ثم كسرت العود . . وقامت ، وبكت . . وانتحبت ، فاتهمتها بمحبة إنسان ! ! فكشفت عن ذلك فلم أجد له أثرا ، فقلت لها : أهكذاكان الحديث ؟ فأجابتنى بلسان طلق ، وقلب محترق ، وهى تقول :

خاطبنى الحق من جنانى فكان وعظى على لسانى
قربنى منه بعد بُعدٍ وخصنى الله واصطفانى

أجبت لما دعيت طوعا ملبيا للذى دعانى
وخفت مما جنيت قدما فأوقع الحب بالأمانى

قال السرى ، رضى الله عنه ، فقلت : على الثمن . وأزيدك . فصاح وقال : وافقراه ، من أين لك ثمن هذه الجارية وأنت رجل فقير؟ !

فقلت له : لا تعجل على ، تكون فى المارستان حتى آتى بثمنها . .

ثم ذهبت باكى العين ، حزين القلب ، ووالله ما عندى من ثمنها درهم . وبقيت طوال الليل أتضرع وأدعو الله عز وجل . . فلم أطعم غمضا وأقول يارب ، إنك تعلم سرى وجهرى وقد عوّلت على فضلك فلا تفضحنى عند مالكها .

وبينما أنا فى المحراب ، وإذا بقارع يقرع الباب ، فقلت : من بالباب ؟

قال : حبيب من الأحباب ، جاء فى سبب من الأسباب ، بأمر الملك الوهاب . ففتحت الباب ، وإذا برجل معه أربعة غلمان وشمعة ، فقال :

يا أستاذ أتأذن لى فى الدخول ؟

فقلت : ادخل ، فدخل ، فقلت له : من أنت ؟

قال : أنا أحمد بن المثنى ، قد أعطانى من إذا أعطى لا يبخل بالعطاء ، كنت الليلة نائم . . فهتف بى هاتف يقول أحمل خمس بدرات [٦] إلى السرىّ تطيب بها نفسه ، ويشترى بها « تحفة » فإن لنا بها عناية فسجدت لله شكرا على ما أولانى من نعمة . . وجلست أتوقع الفجر . . فلما صليت الصبح خرجت ، وأخذت بيد أحمد ، ومضيت به إلى المارستان ، فإذا الموكّلُ بها يلتفت يميناً وشمالاً فلما رآنى قال : مرحبًا ، ادخل فإن لها عند الله عناية ، هتف بى البارحة هاتف ، وهو يقول :

---

(٦) البدرة من المال الكمية العظيمة منه ، وكذلك يقال للكيس الموضوعة فيه : بدرة .

إنها منا ببال ليس تخلو من نوال
قربت ثم ترفت وعلت فى كل حال

قال السرى – رضى الله عنه – فلما رأتنا تحفة تغرغرت عيناها بالدموع – وقالت : شهرتنى بين المخلوقين . . ثم أنشأت تقول :

قد تصبرت إلى أن يميل فى حبك صبرى
ضاق من قيدى وغلّى وامتهانى فيك ، صدرى
ليس يخفى عليك أمرى يا منى سؤلى وذُخرى

قال ، السرى : فبينما نحن جلوس إذ دخل مولاها ، وهو باكى العين ، حزين القلب ، متغير اللون ، فقلت له : لا تبك . فقد جئناك بما وزنت وربح خمسة آلاف .

فقال : لا والله .

فقلت : ربح عشرة آلاف . فقال : لا والله ! ! فقلت : وربح المثل .

فقال : لو أعطيتنى الدنيا ما قبلت ، هى حرة لوجه الله تعالى .

فقلت له : ما القصة ؟ فقال : يا أستاذ وُبِّخت البارحة ، أشهدك أنى قد خرجت من جميع ما لى هاربا إلى الله تعالى ، اللهم كن لى فى السعة كفيلاً وبالرزق جميلاً .

فالتفت إلىَّ ابن المثنى ، فرأيته يبكى ، فقلت له : ما يبكيك ؟

فقال : كأن الحق ما رضينى لما ندبنى إليه ، أشهدك أنى قد تصدقت بجميع مالى لوجه الله .

فقلت : ما أعظم بركة « تحفة » على الجميع .

فقامت تحفة فنزعت ماكان عليها ، ولبست « مِدرعةً »[٧] من شَعر ، وخرجت وهى تبكى فقلنا لها :

– قد أطلقك الله تعالى ، فما يبكيك ؟

فأنشأت تقول :

هربتُ منه إليه بكيتُ منه عليه
وحقه هو مولى لا زلت بين يديه
حتى أنال وأحظى بما رجوت لديه

قال : ثم خرجنا من الباب . . فلما سرنا فى بعض الطريق طلبناها فلم نجدها . ومات ابن المثنى فى الطريق ودخلت أنا ومولاها « مكة » فبينما نحن فى الطواف إذ سمعت كلام مجروح من كبد مقروح وهو يقول :

محب الله فى الدنيا سقيم تطاول سقمه فدواه داه
سقاه من محبته بكأس فأرواه المهيمن إذ سقاه
فهام بحبه وسما إليه فليس يريد محبوبًا سواه
كذاك من ادّعى شوقًا إليه يهيم بحبه حتى يراه

فتقدمت إليها ، فلما رأتنى قالت ، يا سرى . قلت : لبيك ، من أنت يرحمك الله ؟

قالت : لا إله إلا الله . . وقع التناكر بعد المعرفة ! ! أنا « تحفة » . فإذا هى كالخيال . .

فقلت : يا تحفة ما الذى أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق ؟

(٧) المدرعة : الجبة المشقوقة . ودرع المرأة قميصها ، أو ثوب تلبسه فى بيتها .

قالت : آنسنى بقربه ، وأوحشنى من غيره .

فقلت لها : مات ابن المثنى .

فقالت : رحمه الله ، لقد أعطاه مولاى من الكرامات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وهو بجوارى فى الجنة .

فقلت : جاء معى مولاك الذى أعتقك فدعت بدعاء خفىّ ، فلم يكن بأسرع ما عاينتها تلقاء الكعبة ميتة . .

فلما نظرها سيدها لم يتمالك أن سقط على وجه ، فحركته ، فإذا هو قضى نحبه ، فأخذت فى جهازهما ، ودفنهما ، رحمة الله عليهما .

ألوان . . من الحب

وكما أن هناك حبًّا لله فمن ألوان المحبة كذلك حب فى الله . . كحب شخص لشخص . . لا لمنفعة دنيوية ، ولا لغرض ولا لعرض زائل ولكن محبة فى الله سداها الإخلاص ولُحمتها النقاء والوفاء هدفها خير العمل وعمل الخير . . أخوة فى الله وفى الدين «من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً إن نسى ذكّره وإن ذكر أعانه» [حديث شريف روته السيدة عائشة] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما تحاب اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبًّا لصاحبه » وفى حديث قدسى رواه رسول الله ﷺ عن ربه قال : « إن الله تعالى يقول : حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى . . وحقت محبتى للذين يتحابون من أجلى وحقت محبتى للذين يتناحرون من أجلى » .

ونتيجة هذا الحب أمن وأمان وسلام وسعادة فى الدنيا ونجاة وفوز فى الآخرة

يقول رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بحب المساجد ورجلان تحابًا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء قال : رجل : فمن هم ؟ وما أعمالهم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها بينهم ، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » [رواه الترمذى]

ولقد ظهرت هذه المحبة الخالصة ظهورا واضحا فى عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، عندما آخى رسول الله ﷺ عقب الهجرة بين المهاجرين والأنصار ، فقال سعد بن الربيع الأنصارى لأخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف : هذا مالى ، ونخلى ، اقسمه بينى وبينك نصفين ، وهذه دارى بينى وبينك ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى مالك ، دلّنى على سوق المدينة ، فدلّه عليه . . فتاجر حتى أثرى .

وقد مدح الله تبارك وتعالى الأنصار . وسجل لهم هذه الأخوة العالية الغالية بقوله : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم . ولو كان بهم خصاصة) [من سورة الحشر] .

وما انتصر أهل بدر على قلتهم وكثرة عدوهم إلا بهذه الأخوة الإسلامية ، وبهذه المحبة الخالصة .

وقد سئل بعض الكافرين عن سر انتصار المسلمين عليهم مع قلة عتاد المسلمين وعددهم فقال : « إن كل فرد من المسلمين يحب أن يقتل قبل أخيه فداء له ، مسارعة إلى الشهادة فى سبيل الله .

أما غيرهم فكل فرد يحب أن يُقتل أخوه قبله ليستأثر بالغنيمة من بعده.

وحكى « حذيفة العدوى » قال : انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى . وكان معى شىء من الماء وأنا أقول لنفسى : إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه . . فإذا أنابه ، فقلت : أأسقيك ؟ وأشار إلىّ أن : نعم فإذا رجل بجواره يتأوّه ويقول : آه آه . فقال ابن عمى : انطلق إليه بالماء فجئت إليه فإذا هو « هشام بن العاص » فقلت : أأسقيك ؟ فسمع هشام آخر يتأوّه . . فقال لى : انطلق به إليه . . فجئت إليه فإذا هو قد مات . ثم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضا قد مات ثم رجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد لحق بهما .

والحب فى الله يوجب المحبة من الله لقوله ﷺ حاكيًا عن الله : « وجبت محبتى للمتاحبين فىّ » قال الإمام النووى : حديث صحيح رواه مالك فى الموطأ .

وقال ﷺ : « إن الله تعالى يقول حقّت محبتى للذين يتزاورون من أجلى ، وحقّت محبتى للذين يتحابون من أجلى . . »

وروى أنس أن رسول الله ﷺ قال : « مازار رجل رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه : طبت ، وطاب ممشاك ، وطابت لك الجنة » .

تعالوا . . نعلمكم الحب

الدين علمنا الحب . . وأضاء لنا طريق المحبة والود ، وبين لنا من نحب ؟ وكيف نحب ؟ وللحب طرق ووسائل . . طرق يسير فيها أهل الهوى لتوصلهم وتأخذ بأيديهم إلى الباب . . والرحاب واللقاء وطريق الحب ، غالبا ، بل دائما ما يكون شاقًا كله شوق . . وشوك . . وضنى وجهد وأمل ورجاء ووصل وجفاء والمريد المحب يكابد ويجاهد فى طريق المحبة . . إلى أن يصل إلى المراد المحبوب . . إلى الحِب هواه ومبتغاه والحِب لا يقبل الشريك ، كما أن الحب لا يقبل الشركة ولابد فيه من الإخلاص . . الإخلاص للمحبوب وحده يكون الحب له وحده ، لا لغيره ، يخلص له الحب كله والود كله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فحسب يقول المولى : فى حديث قدسى رواه رسول الله ﷺ : « إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى وحب غيرى فيها » ، ويقول المولى فى كتابه العزيز :

(ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)[1] فما هو إلا قلب واحد يتجه به صاحبه إلى حبيب واحد . . يسلمه له . . وهكذا حال من يحب مولاه . . يسلم وجهه وأمره وقلبه وكيانه كله لله ، إن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فهو مع الله ، فهو بالله ، ولله ، ومع الله .

يقول الإمام الجنيد ، عن العبد المحب وعن حبه الإلهى « عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفّى شرابه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله . وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ، ولله ، ومع الله » .

وقال الإمام الغزالى[2] وكمال الحب أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، وبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، وإلى هذا التغريد والتجريد الإشارة بقول الله سبحانه : (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)[3] .

ولحب الإله حدود وحقوق .. يقول أبويزيد البسطامى « كاذب من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده » وأول هذه الحدود هى العمل لله بتعاليم الله . . أداء الفرائض واجتناب النواهى « ما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه » .

يقول الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود فى حديثه عن الحب فى كتاب لطائف المنن[4] (. . ثم يرسم الله سبحانه وتعالى الطريق إلى حبه ، وأول خطوة فى

---

(١) آية رقم ٤ من سورة الأحزاب .

(٢) الإحياء للغزالى ص ٢٦٠٧ .

(٣) آية ٩١ من سورة الأنعام .

(٤) هامش ص ١١٥ من كتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى .

هذا الطريق « أداء ما افترضته عليه »لن يتأتى حب الله سبحانه دون أداء الفرائض والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب ، بل أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله ، لقد ترك قوم العمل وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، مصداقا لقول رسول الله ﷺ : « لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » لابد من أداء الفرائض ، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل .

ومع أداء الفرائض – فى وجوب القرب – الإكثار من النوافل ، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ورد ذكره فى الحديث القدسى .

« من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

ثم يقول الدكتور عبد الحليم : ويربط أسلافنا – رضوان الله عليهم – ربطا محكما بين محبة الله سبحانه واتباع نبيه رسول الله ﷺ متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وهذا الربط معناه : الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومقدمات محبة الله تعالى – فى توفيقه – هى العمل ، ومن نتائج محبة الله سبحانه : العمل .

يقول الإمام أبو سعيد الخراز : « بلغنا عن الحسن البصرى رضى الله عنه أن ناسًا قالوا – على عهد رسول الله ﷺ – يا رسول الله إنا نحب ربنا حبًّا شديداً ، فجعل الله سبحانه لمحبته دليلاً وعلمًا وأنزل عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فمن صدق المحبة اتباع رسول الله ﷺ فى زهده وهديه

وأخلاقه والتأسى به فى الأمور كلها ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل سيدنا محمدًا عليه الصلاة والسلام علمًا ودليلاً وحجة على أمته ، ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل فى جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك » .

وكل محب يتطلع إلى معرفة منزلته فى قلب من يهوى ، وقد أبان رسول الله ﷺ الميزان الذى به تستطيع أيها المحب أن تعرف به مكانك فى دنيا المحبة لله . قال عليه الصلاة والسلام : « من أحب أن يعلم ما له عند الله عز وجل فلينظر ما لله عز وجل عنده ، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه » .

يقول ابن عطاء الله السكندرى فى حِكَمه : أنت مع الأكوان مالم تشهد المكوِّن فإذا شهدته كانت الأكوان معك . . يقول الشبلى : « لا يخط الكون ببال من عرف المكون » حقا فمن كان معه الله كان معه كل شىء . سئل سهيل رضى الله عنه عن القوت . فقال : هو الحى الذى لا يموت .

فقيل : إنما سألناك عن الغذاء . قال : الغذاء الذكر .

فقيل له : إنما سألناك عن القُوام . فقال : القُوام العلم .

فقيل له : إنما سألناك عن طعمة الجسد ، فقال : « دع من تولاه أولاً يتوله آخرًا ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردت لصانعها فهو العالم بإصلاحها » .

يحبهم . . ويحبونه

إن كرهتم الحب . . وأحببتم الكراهية ..

إن ارتددتم عن حب الدين . . وعن دين المحبة . .

إن قصّرتم فلم توفوا بشروط المحبة . . (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)[1] وهذه الآيات ترسم صورة بديلة تصور هؤلاء الذين يحبون الحب ويهيمون بالمحبة ويتفانون فى المحبوب ويجاهدون فيه وله لا يخافون لوما ولا يخشون وعيدا . .

عن هذه الصورة يقول الإمام المرحوم سيد قطب[2] : «والصورة التى يرسمها المولى سبحانه للعصبة المختارة هنا صورة واضحة السمات قوية الملامح – وضيئة

---

(١) من سورة المائدة آية ٥٤ .

(٢) فى ظلال القرآن الجزء السادس ص ٩١٨ طبعة دار الشروق .

جذابة حبيبة للقلوب : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) .

فالحب والرضا المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم . . الحب . . هذا الروح السارى اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش هو الذى يربط القوم بربهم الودود .

وحب الله لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات فى حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها ، أجل . . لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذى يعرف حقيقة المعطى . . الذى يعرف من هو الله . . من هو صانع هذا الكون الهائل . . وصانع الإنسان الذى يلخّص الكون وهو جرم صغير . . من هو فى عظمته ، ومن هو فى قدرته ، ومن هو فى تفرده . . ومن هو فى ملكوته . . من هو ومن هذا العبد الذى يتفضل الله عليه منه بالحب ، والعبد من صنع يديه سبحانه ، وهو الجليل العظيم ، الحى الدائم ، الأزلى الأبدى ، الأول والآخر والظاهر والباطن .

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها ، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا هائلاً عظيماً ، وفضلاً غامرًا جزيلاً فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد ، الذى لا نظير له فى مذاقات الحب كلها ولا شبيه هو إنعام هائل عظيم . . وفضل غامر جزيل . .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا فى فلتات قليلة من كلام المحبين . . وهذا هو الباب الذى تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين — وهم قليل من بين ذلك الحشد الذى يلبس مسوح التصوف ويعرف فى سجلهم الطويل — ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسى مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، وهى تقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل لعبد من العبيد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل يشيع فى هذا الوجود ويسرى فى هذا الكون العريض ، وينطبع فى كل حى وفى كل شىء ، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الإنسانى كله ممثلاً فى ذلك العبد المحب المحبوب .

والتصور الإسلامى يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب . . وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة . . إنما هو أصل وحقيقة وعنصر فى هذا التصور أصيل : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا) (إن ربى رحيم ودود) (وهو الغفور الودود) . . (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) (والذين آمنوا أشد حبًّا لله) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) . . وغيرها كثير .

ثم يقول الشهيد سيد قطب : « إن نصاعة التصور الإسلامى فى الفصل بين حقيقة الألوهية .. وحقيقة العبودية ، لا تجفف ذلك الندى الحبيب ، بين الله والعبيد ، فهى علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل ، وهى علاقة الود كما أنها علاقة التجريد ، وهى علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه ، إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية فى علاقتها برب العالمين » . .

* * *

عن هذه العلاقة التى وضعها الإمام الشهيد صاحب ظلال القرآن بأنها علاقة رحمة وعدل علاقة تجريد قد يعود إلى الأذهان ذلك التساؤل الذى يحاول أن

يستشف وأن يعرف وأن يصل إلى الكنه وإلى الأعماق أعماق هذه العلاقة . .

ونحن نعود فنقول إنه ليس فى المقدور أن نصل إلى الفور حتى نستشف الكيفية والحقيقة . . ليس فى مقدورنا إلا أن نُلقى بالألفاظ – وبالألفاظ فحسب . . شعاعا يكشف إلى حدٍّ ما حدًّ ضئيل قليل يدل على هذه العلاقة . . ويكشف . . ولا يُعرف . فالألفاظ – مهما ارتقت وارتفعت وسمت فى ميدان البلاغة فهى لا تصف النور إلا بأنه نور ولا تعبر عن الإشراق إلا بأنه إشراق ولا تصور الوجد إلا بأنه وجد . . أما ما تنطوى عليه تلك المسميات فأسرار يعرفها من ألهم بالنور وعاش به ، ومن نعم بالإشراق وأحسه هدى ويقينًا ومن احترق بالوجد حتى أنضجته لهبه .

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

فالكلمات لا تعبّر عن الحب ولا تفصح عن حقيقته ، وكما يقول جلال الدين الرومى : هل يشم أريج الورد من الواو والراء والدال وهى الحروف التى تكوّن كلمة ورد ؟

يقول ابن القيم عن هذه المسميات وتلك العلاقات «لا تعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها ، وفرق بين الذوق والوجود ، وبين التصور والعلم ، فالحدود والرسوم التى قيلت فى المحبة صحيحة غير وافية بحقيقتها ، بل هى إشارات وعلامات ، وتنبيهات » .

كتب الحب الإسلامى

فى مقدمة الكتب التى تحدثت عن الحب كتاب الله الكريم فقد دارت فى آياته الشريفة مادة الحب والود والمحبة وما يشتق منها قرابة مائة مرة . .

وكذ أحاديث رسول الله ﷺ فيها أحاديث كُثر تناولت تلك العاطفة السامية النبيلة عاطفة الحب التى تلازم الإنسان من مولده إلى وفاته . .

وعديد من كتب الإسلام تحدثت عن الحب . . وعلاقات المودة وروابط المحبة والأشواق . . والمواجيد . . غير أننا إذا تتبعنا هذه الكتب فإننا نقول :

لا توجد فى المكتبة القرآنية كتاب أفرد صفحاته كلها للحديث عن الحب . . وعن الحب فقط ، إنما جاء حديث الحب فى هاتيك الكتب كلها حديثا عارضًا ، أو حديثًا ضمن أحاديث أخر ، أو تفسيرًا لآية من آيات المحبة ، أو تحليلا لشخصية إلهية . . أو تسجيلاً لمواجيد العشاق والمحبين وتدويناً لأحاسيسهم وأحاديثهم . .

ومبلغ العلم أنه لا يوجد كتاب خاص عن الحب فى المكتبة القرآنية إلا هذا الكتاب الذى بين أيديكم الآن ولعل هذا الكتاب يكون بتوفيق من الله قد ملأ مكانًا كان شاغرًا فى المكتبة القرآنية .

والإنصاف يقتضينا أن نقول إن كتب التصوف الإسلامى لها بعد كتاب الله وسنة رسوله المقام الأسمى فى مجال الحب فقد أفادت وأفاضت فى هذا المجال العاطفى . .

ومن أمهات كتب التصوف التى تعلمك الحب كتاب « لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى » .

وقد حقق هذا الكتاب القيم ووشاه بدقيق التحقيق وبارع التعليق الإمام الأكبر الراحل العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود فله – رحمه الله – جهد محمود ظاهر فى إخراج هذا الكتاب والتعريف بمؤلفه – وإيضاح ما خفى على بعض الأذهان من تعبيراته ومادق من إشاراته واصطلاحاته ، يؤيد هذا ما حفل به الكتاب من هوامش كثيرة فيها تجلية وفيها تحلية . . وفيها تذوق . . وفيها من وراء ذلك كله إلهام وإشراق ودلالة على تفهم لعلوم القوم الظاهرة ، وتذوق لما خفى من إشاراتهم وتعبيراتهم .

وكتاب اللطائف هذا يعلمك الحب : الحب فى الله ، والحب لله ، والحب لرسول الله ﷺ ، وللدعاة إلى الدين وللهداة إلى الله . .

فقد استفاض فى الحديث عن هذه العاطفة السامية النبيلة ، وأورد ما جاء حولها من نصوص قرآنية ونبوية وأقوال المحبين وأهل الهوى الإلهى . . وفصلها وفسرها وأبان أمارات الحب ، وعلاماته ، وبين من هو المحب الحقيقى ، وكيف يتمحض للحب ، ويخلص للمحبوب ، وعن كأس الحب وشرابه وساقيه . .

وقد أفاض الكتاب وأفاد – وبخاصة عندما تعرض لقول المولى سبحانه (وألقيت عليك محبة منى) .

وعند حديث الحب ذاك وقف شيخ الأزهر والإسلام الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود وقفة طويلة فيها تعليق وتعقيب وإضافة استغرقت عدة صفحات شرح فيها أن المحبة صراط الأولياء ، وأن الناس فى العواطف درجات ، ثم كشف فى نهايتها عن علاقة المحبة بالعمل والإيمان والاتباع كما تحدث عن أسباب الحب وعن ثمرة المحبة وأجمل تعبيرات المحبين .

وكانت إضافة مفيدة جديدة منه – رحمه الله – عندما قال فى حديثه هذا :

ولقد سمع الناس كثيرا عن عاطفة الحب الإلهى عند السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض ، والإمام البرعى ، ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية نعتبرها نموذجا للصوفية فى صلتهم بالله سبحانه : إنها شخصية الإمام الشبلى .

وإذا كان الجم الغفير من الشعب الإسلامى قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية ، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند الشبلى ، ولكن المؤرخين لحياة أبى بكر الشبلى يتحدثون عن حبه العميق وهيامه المستمر ومنهم – مثلا – صاحب الحلية الذى يقول عنه :

« ومنهم المجتذب الولهان ، والمستلب السكران ، والوارد العطشان : اجتُذب عن الكدور والأغيار ، واستُلب إلى الحضور والأنوار ، وسُقى بالدنان ، وارتهن ممتلأ ريان : أبو بكر الشهير بالشبلى وسيرى القارئ أن أسباب المحبة عنده وأن ثمارها ، وأن تصريفها ، وكل ما يحيط بها منغمس فى جو من الاتباع لرسول الله ﷺ ، وشعار من التزام الشريعة الغراء . .

ثم يقول الإمام الراحل – عليه رضوان الله ورحماته :

وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله ﷺ أساسا لكل تصرفاتهم .

أما عن أسباب المحبة : فإنها فيما يرى الشبلى نتيجة « الهمة » .

والهمة عند الصوفية هى : التشمير والجد فى العبادة .

ويقول الشبلى : « إن من قلت همته ضعفت محبته » .

فمع الهمة إذن صعودًا وهبوطًا تكون المحبة صعودًا وهبوطًا .

ولقد جلس عنده جمع من المريدين فوجدهم غفلة لا يذكرون ، فقال فى حزن :

كفى حزنا بالواله الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

وسئل مرة عن أعجب شىء فقال : من عرف الله ثم عصاه .

والمحب لا يسر ولا يفرح بشىء أكثر من موافقة من يحب . لذا قال رجل للشبلى : إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين ؟

قال : إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته ، وأنشد :

أُسرّ بمهلكى فيه لأنى أُسرَّ بما يسر الإلف جدا

ولابد للمحب من الأدب الكامل فى القول فضلاً عن السلوك يقول الشبلى « الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب » والمحبة عند الشبلى : اتباع أوامر المحبوب وتجنب نواهيه ، ومع ذلك فيجب : الصدق والإخلاص وكتمان الحال مع بذل الجهد فى المجاهدة . . ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلا بفضله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) .

وتراثنا الروحى يفيض بالكتب التى تعرضت للحب وأغرت به . . وحرضت عليه . .

فى الرسالة القشيرية للإمام القاسم عبد الكريم القشيرى نجد بابا عن المحبة وآخر عن الشوق .

وفى الكتب التى تناولت شرح أحاديث رسول الله ﷺ نجد فيها الرائع البارع والعجيب المعجب عن هذه العاطفة عاطفة المحبة والمودة والشوق وعن الوصول . . والوصل . . وعن كل ما يتعلق بهذه الأحوال من أقوال رسول الإنسانية والسلام محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وأزكى سلام .

ولننتقل الآن من التالد . . إلى الطريف ، من كتب التراث إلى الكتب المعاصرة التى جالت فى هذا المجال أو ارتبطت به بسبب من الأسباب .

من الكتب التى ظهرت أخيرا كتاب « رابعة العدوية والحياة الروحية فى الإسلام » للمرحوم طه عبد الباقى سرور تحدث رحمه الله فى هذا الكتاب عن رابعة العدوية ونشأتها وأثرها فى الروحانية الإسلامية ، وتحدث عن الحب والتصوف وعن رابعة رائدة الحب الإلهى ، وفى حديثه عن المقامات الروحية فى الإسلام كمقام التوبة والرضا والمراقبة تحدث عن مقام المحبة ، وعن رابعة والمحبة ، وكيف أنها صعدت فى هذا المقام درجات ودرجات حتى وصلت إلى أعلى درجات المحبة وذلك عندما تعجبت من هؤلاء الذين يعبدون الله لقاء الأجر ! !

فتمنت لو قدرت على أن تُشعل النار فى الجنة حتى تزول وأن تسكب الماء على جهنم حتى تنطفئ ، وبذلك ترتفع الحجب ويزول الغشاء عن طريق السالكين إلى الله لا يحدوهم أمل ولا يُفزعهم خوف لا يرهبون النار ذات الوقود . . ولا يعبدون الله لأجل نعيم الجنة ، إنها تقول بعد أن وضعت النار فى يد والماء فى يدها الأخرى أنشأت تقول ذلك القول الرمزى : سأشعل النار فى الجنة وأسكب الماء على النار حتى ينجاب الغشاء عن طريق السالكين إلى الله ، ويتبين مقصودهم ، ويشاهدوا الله لا يحدوهم أمل ولا يفزّعهم خوف ، أفإن لم يكن جنة ولا نار لم يعبد الله

أحد ؟ ! ولم يطعه أحد ؟ ! .

وقد يعجب البعض لهذا القول من رابعة . . ولا عجب فالصوفية يحبون وهدفهم فى الحب . . خالق الجنة . . لا الجنة هم لا يتطلعون إلى أجر ولا يتطلبون جُعلا فى نظير عبادتهم . . إنهم يعبدون الله من أجل محبة الله .

فرابعة لا ترى فى الوجود إلا خالق الوجود ، ولا تحب فى الكون إلا المكوِّن وحده سبحانه وتعالى . . فالصوفى حبه لله ، والعابد حبه للأجر ، وللثواب ، وللجنة ، وفرق بين من يحب الجنة ومن يحب صاحب الجنة . هم يفرون من الكون إلى المكون ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الخلق إلى الخالق ، ومن النفس إلى خالق النفس (ففروا إلى الله) الهدف الله . الغاية الله . . والله وحده لا الثواب ولا العقاب .

لذا كان هؤلاء المحبون يجاهدون . . ويحاربون ويستشهدون متمنين لقاء الله راغبين فى الموت والاستشهاد ويقولون : ما رأينا خيرًا قط إلا من ربنا فكيف نكره لقاء من لم نر خيرًا إلا منه .

ومن الكتب الإسلامية التى ظهرت حديثًا ذلك الكتاب الذى ألفه العارف بالله الإمام الراحل الدكتور عبدالحليم محمود عن « أستاذ السائرين الحارث المحاسبى » .

فى هذا الكتاب عرض الإمام الراحل أقوال المحاسبى عن المحبة وآراءه فيها وتعريفه لها ومعرفته بها وعلامات أهل الصدق من المحبين وتردد قلوب المحبين بين الخوف والرجاء . . خوف من ماذا ؟ ورجاء لماذا ؟ يجيب عن ذلك المحاسبى فيقول : « إنهم يخافون خوفا لما ضيعوا فى سالف الأيام ، خوفًا لازمًا لقلوبهم ثم خوفا ثابتًا – لا يفارق قلوب المحبين – خوفًا أن يسلبوا النعم إذا ضيعوا الشكر على ما أفادهم . فإذا تمكن الخوف من قلوبهم هاج الرجاء بذكر سعة الرحمة من الله ،

فرجاء المحبين تحقيق وقربانهم الوسائل ، فهم لا يسأمون من خدمته ، ولا ينزلون فى جميع أمورهم إلا عند أمر ربهم لمعرفتهم به أنه قد تكفل لهم بحسن النظر » .

ومن نافلة القول أن نقول إن كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى – وهو من أنفس الكتب الإسلامية الغنية عن التعريف – وقد تحدث الإمام الغزالى فى كتابه هذا فى الربع الخاص بالمنجيات حديثا مستفيضًا عن المحبة والشوق والأنس ، كما تحدث عن حب الذات وحب الجمال .

وقد كشف فى إفاضة وعمق عن الأسباب المقوية لحب الله ، وكيف يتفاوت الناس فى الحب شدةً وضعفًا كما تحدث فى إسهاب حديث العالم الخبير – ولا ينبئك مثل خبير – عن الشوق إلى الله تعالى ، والأنس به كما استفاض فى الحديث عن الرضا وحقيقته .

وفى النهاية عرض بعض قصص المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم .

وقبل ذلك تحدث فى الربع الخاص بالعبادات من كتابه عن الأخوة فى الله . . والأخوة فى الدنيا ، وعن البغض فى الله ، وعن حقوق الأخوة وعن آداب الصحبة والمعاشرة .

من مناجاة المحبين

من مناجاة رسول الله ﷺ لربه :

« اللهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك ، والعمل الذى يقربنى إلى حبك » .

« وأسألك لذة النظر إلى وجهك . . والشوق إلى لقائك » .

° ° °

ورابعة كانت تناجى ربها وتقول :

إذا كنت أعبدك خوفا من نارك فأحرقنى بنار جهنم ، وإن كنت أعبدك طمعا فى جنتك فأحرمنيها . .

أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك .

يارب اجعل النار لأعدائك . . والجنة لأحبائك . . وأما أنا فحسبى أنت » .

حبيبي ليس يعدله حبيب ولا لسواه فى قلبي نصيب
حبيبي غاب عن بصرى وشخصى ولكن فى فؤادى ما يغيب

وقالت :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسى وحبيب قلبي فى الفؤاد أنيسى

وناجت فنادت :

يا سرورى ومُنيتى وعمادى وأنيسى وعدتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى أنت لى مؤنسى وشوقك زادى
إن تكن راضيًا علىّ فإنى يا مُنى القلب قد بدا إسعادى

وهذه المناجاة تروى عن يحيى بن معاذ :

إلهى . . إنى مقيم بفِنائك ، مشغول بثنائك ، صغيرا أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال وقلبتنى فى الأعمال : سترًا وتوبةً ، وزهدًا وشوقًا ، ورضًا وحبًّا ، تسقينى من حياضك وتمهلنى فى رياضك ، ملازمًا لأمرك . . مشغوفًا بقولك كيف أنصرف اليوم عنك كبيرا ، وقد اعتدت هذا منك صغيرًا ؟ ! فلى ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب ، وكل محب بحبيبه شغوف وعن غير حبيبه مصروف .

ومن مناجاة ابن عطاء الله :

إلهى : ماذا وجد من فقدك وما الذى فقد من وجدك . .
لقد خاب من رضى من دونك بدلا
ولقد خسر من بغى عنك متحولاً

إلهى : كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان .
وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان ؟

إلهى : إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ، ولك المنة على
وإن ظهرت المساوئ منى فبعدلك ولك الحجة علىّ

إلهى : ما أقربك منى ، وما أبعدنى عنك

إلهى : كيف يُستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك
أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك
متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك .
ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى الموصلة إليك

إلهى : عميت عين لا تراك عليها رقيباً
وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً .
كيف تخفى وأنت الظاهر . .
أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر
أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك
وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبائك
أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم
وأنت الذى هديتهم حيث استبانت لهم المعالم

إلهى : إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك
كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك .

وفى كتاب « النبى الإنسان » للأديب المرحوم محمود تيمور ترنيمة إلهية ، ومناجاة صوفية ، بل ورد من الأوراد كله ابتهالات علوية ، وسبحات قدسية ، وصبوات إلهية . صادرة من أعماق « تيمور » الصوفى الروحى تنم عن تدين موغل

فى العمق ، وتكشف عن نفس سمحة خيرة ، ظاهرها كباطنها . . هو الصفاء والسمو والإشراق . .

يقول فى ذلك الورد « التيمورى » : « قل : يارب . . يارب . . كلمة واحدة . . أذكرها ولا ترد عليها . . فأنت بها فى غُنية من مزيد . . رطّب لسانك بهذه الكلمة القصيرة ، ودع ما عداها من كلمات طوال انس كل شىء حولك ، بل انس وجودك ، وانس علمك وخبرتك ، وصح قائلاً : يارب . .

قلها فى صيحة صامتة ، فليس الله بحاجة إلى من يُعلى الصوت ويرفع النداء . .

قلها لنفسك ، ولا تُسمعها أحدًا غيرك ، فما انتفاعك بأن يسمعها الناس منك . . إنما انتفاعك بأن تسمعها أنت نفسك مناجاة تتجاوب أصداؤها فى حنايا قلبك . .

قلها كلمة واحدة ،وحسبك بها ، فالله هو الكلمة الواحدة لهذا الكون الحافل العظيم .

قلها مرات ومرات . . لا تسأم التكرار والترديد . .

قلها فى أى وقت شئت ، وفى أى مكان حللت ، سواء أكنت فى خلوتك ، ظافرا بوحدتك ، أم كنت فى معترك العيش تخوض الزحام . .

قلها فى إصرار ، فى عمق ، فى نشوة . . قلها وأنت فى غفوة النوم ، أو فى صحوة اليقظة . .

قلها فى ضراعة المستغيث من كربته ، وفى قوة المطالب بحقه . .

قلها وأودعها كل ما تهفو إليه من مطامح ورغاب ، فإنها لا تضيق بشىء مما تنفسح له خلجات النفوس وأهواء القلوب .

قلها وأنت ظالم جشع ، أو مظلوم موتور ، قلها وأنت منتصر جبار ،

أو مستضعف مهزوم . .

قلها وأنت مسرور يهز أعطافك المرح ، أو محزون ينوء كاهلك بالأثقال والخطوب . .

قلها أبداً مهما يكن من أمرك ، وعلى أى حال تكون ، فإنك بعد أن يلهج بها لسانك ، لا تلبث أن تحس أنك ذلك المخلوق الذى عرف الخالق . . عرف الله ، فانكشفت له الحقيقة الأزلية من وجوده ، وزالت الغشاوة عن عينيه . . غشاوة الاختلاف بين إنسان وإنسان ، وإن تباينت الألوان . .

يارب :

نداءٌ يا له من نداء . . فيه يتركز كل ما يهتف به الدعاة من صلوات وابتهالات منذ ارتفع على ظهر الأرض دعاء إلى أن يطوى الله الأرض والسماء .

فيه تندمج الأديان ، فإذا هى دين الله ، وتأتلف الأوطان ، فإذا هى وطن الإنسان ، فيه ينبض قلب الكون كله نبضة واحدة ملؤها طهر وصفاء .

نداء ينتظم الناس أجمعين فى سماط واحد هو سماط الإنسانية الخالد . .

نداء يسمو بك على كل ما يخدعك فى هذه الحياة من جاه زائف ، ومال زائد ، وسلطان يبيد .

نداء يصلك بتلك الروحانية السرمدية . . روحانية الله فى ملكوته الأعلى .

يارب :

كلمة ينبعث بها صوتك ؛ فإذا هو صدى لصوت البشرية فى كل جيل وقبيل . . البشرية المبتهلة دائما إلى الله ، لأنها أبداً فى حاجة إليه ، يؤنسها فى الوحشة ويهديها من الحيرة ، ويعينها على الطريق . . متى قلتها فى إيمان ويقين عرفت كيف يستجيب الله الدعاء ويلبى النداء . .

متى قلتها فى حرارة تذيب نفسك ، وتصهر سريرتك ، شعرت بأنك قد

اغتسلت وتطهرت فتألق نور عينيك ، وشاع الصفاء بين جنبيك ، وكأنك قد نبت لك جناحان يرفّان ، فأنت بهما فى خفة الطير تحلق فى الفضاء الفسيح :

يارب . .

ما هتفت بك مرة إلا أحسست النورانية تشرق على قلبي .

ما هتفت بك مرة إلا استشعرت الطمأنينة الساجية تشيع فى نفسى

ما هتفت بك مرة إلا آنست فورة الأمل وانبعاث الحيوية ، لا حيوية الفتك والتدمير ، بل حيوية الحب الشامل العطوف .

يارب . .

لا أرهب شيئًا فى الوجود مادام ندائى لك ملء سمعى ، حتى أنت لا أرهبك ؛ لأن حبّى إياك يعمر قلبي ، والمحب الصادق لا يتطرق إلى قلبه الخوف ممن يحب . .

ما أخافك إلا إن أحسست البعد عنك ، وكيف أبعد عنك وأنا بندائى لك قريب منك .

ربما كنت أنا خاطئًا فيما كُتب علىّ من شرٍّ ، ولكنى أحب فيك الخير يا صانع كل خير أحب فيك الطمأنينة والسلام ، يا منبع كل طمأنينة وسلام . .

يارب . .

ما أسعدنى بحبي إياك

أنا لا أخشى أعاصير الحياة ، لأنى فى عصمة منها بالطلاسم ، وليست هذه الطلاسم إلا ما أجد لك فى قلبي من حب دائم موصول ، أنا لا أضيق ذرعا بالآلام ؛ لأنى أجد فى نسمة رضاك ما يمحو الآلام ، ويأسو الجراح . .

يارب . .

لم أعد أعرف إلا وجودك معى حتى الموت لا أرهبه ولا أتهيبه ، فهو يدنينى منك ، ويجلو لى وجهك الوضاح ، أنا إذا نمت مطمئنًّا رخيّ البال ، فاسمك آخر

ما تلفظ به شفتاى ، وأصحو – إذا صحوت – متفائلا طلق الأسارير ، فندائى لك أول ما يلهج به لسانى . .

ما أحوجنا إلى أن نراك رأى البصيرة ، فالبصائر أقوى على الاتصال بكل ما هو مكنون ، بكل ما هو حق ، بكل ما هو خير . .

نريد أن نستجلى ببصيرتنا ضوءك ، لكى نعرّف من حنانك وشفقتك ، لكى نروى قلوبنا بمحبتك . .

إننا نتشوف إلى رؤيتك ، فلا تحجب عنا قبسا من نورانيتك . .

إننا نحس الوحشة فى عالمنا على ضجته ، فهى ضجة الطبل الأجوف ، تثير فينا فزعا ورهبة ! !

إذا لم نستشعر وجودك يفيض علينا أنسًا ودعة ، فنحن فى وحدة وانفراد ، وإن كنا فى جمع حاشد ، وشمل جميع ، فلا تكلنا إلى هذه الوحدة الموحشة . . وحدة النفس المشردة ، لا سكينة ولا سلوى .

يارب . .

نحن فى اضطراب يتلوه اضطراب . . تسلمنا ألغاز الحياة إلى ألغاز . . نحن فى ظلمة حالكة حيارى ، لا ندرى أين المساق ؟ ! فاكشف عنا الحجب . واهتك أستار الظلام ، وأشرق علينا بنورك . . نور الحق . . والخير . . والحب . . والسلام . .

يارب . .

إنك لتسمع دعائى . . وإنك لتجيب ندائى

كلماتك تتأدى إلىّ ، بلا واسطة من أصوات ، فإن الأصوات تطرق الآذان ، ولكن كلماتك تنفذ توًّا إلى القلوب .

أسمعنى صوتك يا رب . .

أنر بصيرتى لرؤيتك يارب .
اسقنى من فيض رحمتك يا أرحم الراحمين » .

* * *

وعن محبة رسول الله ﷺ ومحبة شريعته والدين الذى نزل عليه ، يقول محمود تيمور فى كتابه السابق « النبى الإنسان » يقول :

« لقد تمثل الدين لى جوهرًا وروحًا أكثر منه رسومًا وقواعد ، ومعنى جليلاً أكثر منه لفظًا محدودًا . . لقد أصبح عندى فكرة عميقة تسرى فى شرايين الحياة مسرى الدم فى شرايين الإنسان ، حتى لقد استبان لى هذا الدين فوق الأوامر والنواهى . . وفوق الرسوم والتعاليم . .

كان مفتاح فهمى لرسالة الإسلام أنى تصفحت حياة الرسول – ﷺ – جانبا بعد جانب ، فتجلت لى شخصية عامرة بالعظائم فى بناء كيان الأمة ، وفى تقويم خلق الفرد ، وفى نهج الحياة لسالكيها من سائر الناس ، أخذت بيدى هذه الشخصية الفذة تهدينى طريق الحق والدين ، فوجدتنى أحب هذا الدين ، وأحب فيه رسالته التى جاء بها رحمة وهدى . . سبحانك اللهم وتعاليت فيما قدرت . . وفيما اخترت . .

اصطفيت رسولك . . « محمدًا » لأداء رسالتك ، فما كان اصطفاؤك إياه لهذا الأمر العظيم إلا لأنه كفء عظيم . . لعمر الحق إن محمدا ﷺ كان بشخصيته ، وبخصائصه ، قوة للدين ، ومددًا للإيمان ومنارًا يرفع الغشاوات ويكشف الحجب .

أينبعث النور وضاحًا من مصباح أقتم أغبر؟ !

لقد حمل « محمد » ﷺ شعلة الإسلام فأضاءت فى يده ، وازدادت من توهج ، وأشاعت من حوله الدفء والضياء . .

كانت حياة الرسول – ﷺ – قبل مبعثه حياة تكمن فيها خصائص النبوة ، وتتمثل أخلاق الرسالة ، فلم يكن – بعد أن بعث رسولا إلى الناس – شخصًا جديداً على الناس فى الأخلاق والسلوك والأهداف .

ولو جاز لنا أن نستشف معالم الإسلام قبل الدعوة المحمدية إليه لتراءت لنا هذه المعالم من خلال حياة محمد – ﷺ – قبل الإسلام .

إن الله سبحانه إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه . . وسنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . . فلا غرو أن يكون محمد ﷺ هو الأفق الرفيع الذى صاغته يد العناية الإلهية ، لكى يشرق من جانبه كوكب الدين باهر الألاء . .

شخصية محمد – ﷺ – ترجمة حية لكتاب الله ؛ إذا قرأت قرآنه طالعتك الصحائف الغر من حياة رسوله ﷺ ومن ميزاته ، وكأنما شاء الله أن يسوق لنا منهج الدين فى كتابه ، وأن يتبعه تطبيقًا عمليًا ، ونموذجًا بشريًا فى حياة محمد ﷺ ، وفيما أثر عنه من ألوان التصرفات فى شتى شئون الحياة . .

كان محمد عليه الصلاة والسلام رجل دنيا ودين . . أحب الطيبات من متاع العيش وسعى إليها سعى الأخيار بوسائل الأخيار ؛ لأنه كان يرى الله فى كل ما يعمل ، مقيما ضميره مقام الرقيب الساهر ، وذلك هو جوهر الدين الخالص . . ذلك هو الإسلام .

يهيب بك الإسلام أن تستمع بدنياك طولا وعرضا ما طاب لك ، ويدفع بك إلى الضرب فى مناكب الأرض استخلاصا لما على ظهرها وما فى باطنها من كل شىء ، فلتفعل ما تهفو إليه نفسك من مأكل ومشرب وملبس ، ولتلتمس كل ملذة من وجهها المشروع . . لاحرج عليك ولا تثريب . . مادام ذلك منك فى غير عدوان ولا سرف .

كان محمد ﷺ إنسانيًا قبل أن يكون نبيًا ، فلما أظلته نبوته لم تبرحه إنسانيته ،

بل زكت وتوهجت ، وبقى إنسانا فى جوانب حياته تتصل أرومته بأرض البشر . وتسمو روحه إلى الملأ الأعلى . . أحب محمد ﷺ وأبغض ، وأناب وعاقب ، وعامل الناس كما يحب أن يعاملوا ، لا رحمة فى غير مرحم ولا قسوة إلا حين تقتضيها حكمة ، وهكذا عاش محمد ﷺ فى دنياه فردًا منها لا شذوذ ولا انفصام . . كذلك كان دين محمد إنسانيًا مثله ، من فهم أسراره من الناس لم يُرِبْه منه شىء ؛ فإنه واجد فيه وشائج النفس البشرية فى أطوارها ومنازعها ، وواجد فيه مع ذلك سموًا بهذه النفس البشرية إلى الأوج الرفيع . .

أهل الهوى

من أهل الهوى . . أهل الله . . أحباب الله الذين عاشوا هائمين فى جوى وشوق وذكر وفكر . .

عن هؤلاء وجدت هذه الأبيات مكتوبة فى مخطوطة صوفية بدار الكتب المصرية .

قوم سكارى فى محبته ... كساهم الحب بين الناس أثوابا
خُمص[1] البطون إذا ما قال واحدهم ... يارب ، فتحت الأبواب إيجابا
لا يحجبون على أبواب سيدهم ... بل هم أقيموا على الأبواب حجابا
إذا تجلى لهم فى طيب حضرتهم ... تاهوا من السكر إذلالاً وإعجابا

(١) خمص البطن : فرغ وضمر .

بالذل عزوا وبالإقلال قد كثروا ... وقاطعوا فيه أسبابًا وأحسابا
فاختر لنفسك ماذا أنت فاعله ... ولا تكن فى فعال الخير مرتابا
وإلا فخل حديث الحب مطرحًا[٢] ... فإن للحب خُطابا وطُلابا

كما وجدت أيضا هذه الأبيات :

قُتلوا ولكن فى هواه عذارا[٣] ... قوم يعدون التستر عارا
واستعذبوا فى الحب وجدان الهوى ... واستوطنوا فيه التهتك دارا
وتوسدوا[٤] فرش الضنى وتدرعوا[٥] ... ثوب الفرا[٦] واستُعبدوا أحرارا
قوم إذا ذكروا ليالى وصلهم ... وهبوا النفوس وطلقوا الأعمارا
وإذا حدى[٧] حادٍ بذكر حبيبهم ... نثروا الدموع وفرقوا الأطمارا[٨]
هبت عليهم نفحة قدسية ... نشرت لهم فى طيها أخبارا
فالقوم من ذاك الحديث وطيبه ... من غير ما شربوا الدموع سكارى
هذا ، وما عرفوا المدام[٩] فكيف لو ... عرفوا الخمار[١٠] وشاهدوا الخمارا[١١] ؟

وعن أهل الهوى . . وأرواحهم وهيامهم والأنوار التى تغمرهم وألطاف الله وتجلياته عليهم يقول شاعرهم :

---

(٢) مطرحا : مبعدا له .
(٣) العذار : الحياء .
(٤) توسد الوسادة جعلها تحت رأسه وتوسد ذراعه نام عليه والضنى الألم : جعلوا فراش الألم وسادة لهم .
(٥) تدرعوا : لبسوا .
(٦) الفرا : حمار الوحش .
(٧) حدى : غنّى .
(٨) الأطمار : الأثواب .
(٩) المدام : الخمر .
(١٠) الخُمار : صداع الخمر .
(١١) صانع الخمر وبائعه .

تجلى علينا الله ، والليل أُردفت ذوائبه ، والناس فى الليل نُوَّم
خذنا شجون العشق نخلو بنفسنا وأرواحنا فى ربِّها تتهيم
ذا كانت الأجساد تُروى من الثرى فإنا بنور الله نُروى وننعم
نعم ، نحن من أبناء آدم عنصرًا ولكننا فوق السموات نُكرم
فحجتنا القرآن وهو إمامنا وقدوتنا المختار وهو المعلم
فلم تك إلا للإله عبادتى ومن عبد الرحمن بالعفو يُرحم
أتحسبنى أنساه فى العمر لحظة وكيف وقلبى باسمه يترنم
أفاض علىّ الحق من بحر نوره فقلبى بغير الحق لا يتكلم
زَهِدْتُ حياتى إذ فنيت بحبه ومثلى ومن فى حضرة الحق يُعدم
فيا هذه الدنيا اصنعى ما أردته فإن رضاء الله للقلب أكرم
ولست بشاك من كفافى وقلتى فلى فضله – عن كل لهوك – مغنم

شراب الحب . . والكأس . . والساقى

أما عن شراب الحب . . وخمر القرب . . والكأس والساقى والسكر والصحو وأمثال هذه التعبيرات التى توجد فى أشعار أهل المحبة الإلهية فمن نافلة القول أن نقول إنهم ينزهون المولى ويقدسونه ويصفونه بكل صفات الجمال والكمال ، وأن وراء ألفاظهم هذه دلالات أخرى وإشارات ورموز .

يقول علماء الرمز إن الخمر ، هى الأنوار الساطعة من جمال المحبوب تُسكر وتدير الرءوس والقلوب .

والكأس : هو الوسيلة التى تنقل أثر ذلك الجمال إلى الأفئدة والوجدان .

وإن الساقى رمز إلى المولى سبحانه . .

وأن الذائق هو الذى كشف الله له عن هذا الجمال أوعن بعضه .

فمن حظى بلحظات تمتع وحب . . فهو الشارب كالذى يشرب جرعات

ورشفات فقط .

أما الذى توالت عليه الأنوار فهو الذى بلغ مرتبة « الرىّ » .

أما الذى ارتوى وظل يشرب . . ويشرب حتى غاب عما حوله من محسوس ومعقول ، ولم ير إلا فيوضات ربه ، فهذا هو السكران الذى غاب عن الوجود ولم ير إلا الله الواحد الموجود .

وأوقات الصحو : هى التى يرتد فيها السكارى إلى صحوهم وإدراكهم وإدراك ما حولهم وما يحيط بهم .

وقد يتأفف البعض من هذه الرموز أو من بعضها ولكن الرمزية لها مجال فى بعض أمورنا التعبدية : يقول الإمام الشهيد حسن البنا[1] : « والرمزية هى اللغة الوحيدة لتمثيل المعانى الدقيقة والمشاعر النبيلة ، التى لا يمكن أن تصورها الألفاظ ، أو تجلوها العبارات .

والذى يعظّم علَم وطنه يعلم أنه فى ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها ماديًّا ، ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معانى المجد والسمو التى يعتز بها وطنه – وأنها تصور أدق المشاعر فى وطنيته ، فهو يحيي هذا العلم ويعظمه ويحترمه ويكرمه لهذه المعانى التى تجمعت جميعا وتمثلت فيه .

والكعبة المشرفة علَم الله المركوز فى أرضه ، ليمثل به للناس أوضح معانى أخوّتهم ، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم ، وإنما كانت بناء ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ومن أجمل الجميل أن يقوم على رفع هذا البناء إبراهيم الخليل أبو الأنبياء .

وهذه اللغة الرمزية . هى لغة عقلانية عالمية واسعة – إن صح إطلاق هذه النعوت عليها .

---

(١) مجلة الشهاب العدد الثالث ص ٥١

إن هذه اللغة . . لغة الرمزية قد تحدث بها الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت[٢] وفسر لنا بها بعض مناسك وأعمال الحج ، قال :

« فما الإحرام فى حقيقته – وهو أول المناسك – إلا التجرد من شهوات النفس والهوى ، وحبسها عن كل ما سوى الله ، وعلى التفكير فى جلاله .

وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد ، وبالتزام الطاعة والامتثال .

وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله صُنعَ المحب الهائم مع المحبوب المنعم ، الذى تُرى نعمه ولا تُدرك ذاتُه .

وما السعى بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمى الرحمة التماسا للمغفرة والرضوان .

وما الوقوف بعد السعى إلا بذل المهج فى الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية ، وأيد مرفوعة بالرجاء ، وألسنة مشغولة بالدعاء ، وآمال صادقة فى أرحم الراحمين .

وما الرمى – بعد هذه الخطوات التى تشرق بها على القلوب أنوار ربها – إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر ، ونزغات النفس ، وإلا رمز مادى لصدق العزيمة فى طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات .

وما الذبح – وهو الخاتمة فى درج الترقى إلى مكانة الطهر والصفاء – إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها فى بناء الفضيلة ، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار » .

---

(٢) ص ١٢٠ من كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » .

فى محراب الحب

صبوات وصلوات ، وخفقات وابتهالات ، ومواجيد وأشواق ، وحنين وزفرات وشئون وعبرات ، وقلوب خافقة ، وأفئدة نابضة بالحب كل الحب .

أصحاب هذه الحالات هم أحباء الله ، فى محراب الحب يهيمون ، يتعبدون بالمحبة[1] ويتنفسون العشق ، يذكرون ويتفكرون ، ويجالسون الله . . بعيدون عن الخلق مشغولون بالخالق ، تحلق أرواحهم فى سموات وبجالات . . تطوف فيها وتحوم وتشهد وتسبح فى عوالم وأجواء عزيزة منيعة إلا عليهم وهذا عابد فى محراب الحب عرف وأحب وشاهد وهام . .

---

(١) قال الحلاج رضى الله عنه : ما من أحد يعبد الله بفعل يكون أحب إلى الله من حبه تعالى .

عرف ربه وأنس به فى سره وعلنه وهام فى مشهد قدسه هو شاعر الأولياء الشيخ على عقل الذى يقول :

وعشت زمانى لست أحفل بالورى ... وكيف ، وقلبى هام فى مشهد القدس
ولم أخش من بأس ولم أخش طاغيًا ... ومن يخش ذات الله لم ير من بأس
وهل غير ذات الله للنفس مطلب ... حرام سوى الرحمن يدخل فى نفسى
وتوّجت بالقرآن نفسى عقيدة ... أصون به نفسى عن الزيغ والدسّ
وإن شرب الناس الطلا[٢] وتصببوا ... فسنة خير الخلق فى شربها كأسى
وما اتخذت روحى سوى الله غاية ... فتم الهدى للروح والقلب والحس
وإن رفع المثرون عجبًا رءوسهم ... رفعت بذكر الله فوق الورى رأسى
وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده ... فتقوى إله العرش بين الورى غرسى
تعشقت نور الله وهو بصيرتى ... وقد وضح البرهان من آية الكرسى
وقد شاهدت روحى جلالك وارتقت ... تجرّدتُ عن معناى فى عالم الحسّ
أحبك يا ربى محبة موقن ... وفى قوة الإيمان أصبح أو أمسى
أمتع أعضائى بذكرك دائمًا ... وهل غير ذكر الله يسكن فى نفسى
وكل رجائى أن أحبك صادقًا ... إذ الصدق فى الإيمان مرتبة القدس
إذا رضى الرحمن عن قلب عبده ... جرت مركب الأقدام معه على اليبس

ويقول :

ألوذ بالله لا أبغى به بدلا ... ومن يلوذ بباب الله يسعده
أخلى فؤادى له من كل شائبة ... إن عشت أو مت أعضائى توحده
وكيف أرضى بغير الله متجهًا ... والكل والجزء والأحشاء تعبده

(٢) الطلا : الخمر.

إذا سهرتُ فما أسهرت عن ملل ... لكنه الحب يدعونى وأشهده
ومذ تغزلت فى ربى ، وما ألفت ... روحى سواه ، تجافى الجفن مرقده
إذا مددت يدى لله أسأله ... مدت إلى بمعنى فضله يده

وعن الذنب والحب يقول :

إذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى ... إليه ، وما تثنى الذنوب عن الحب
حياتى حياة المذنبين ومهجتى ... لها أدب فى الحب جل عن الذنب
أضاء الهدى قلبى ونقّى سريرتى ... فليست كبعض الناس أنسب للترب
فيارب إن زادت ذنوبى فإننى ... وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى
فإن كان ذنبى فبُعدى عنك لحظة ... فإنك غفار الذنوب بلا ريب

* * *

والقلب هو محراب الحب . . هو معبد المتعبد .

والقلب على صغره وسع عوالم وأجواء وأضواء « ما وسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » .

هو موطن الذكر والفكر والشكر والزهد وهو باب السمو إلى الروحانية « إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله » (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

ومحبة الله إذا سكنت القلب أثرت فى القلب . . وفى القالب وأثرت فى الروح . . وفى النفس ولمحى المولى سبحانه تعبيرات قد توهم بشىء من التحيز والتجسد بالنسبة لله تعالى وذلك حينما يعبرون عن سكناه فى القلب – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا – وحاشا لذات الله أن تتصل بجسد مخلوق ، وما غابت هذه البديهية عن قلوب المحبين وعن عقولهم .

إنما هم يقصدون من تعبيرهم هذا أن محبة الله تعالى هى التى تسكن القلب وتشغل الفؤاد ، كما يسكنه الإيمان بالله ، والثقة فيه ، والتوكل عليه .

يقول ابن الفارض فى حب القلب والقالب :

أنتم فروضى ونفلى أنتم حديثى وشغلى
يا قبلتى فى صلاتى إذا وقفت أصلى
جمالكم نصب عينى إليه وجهت كلى
وسركم فى ضميرى والقلب طور التجلى

والإمام الشبلى يقول عن سكن المحبة فى القلب :

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

كما يقول :

والله ما طلعت شمس ولا غربت إلا وحبك مقرون بأنفاسى
ولا جلست إلى قوم أحدثهم إلا وأنت حديثى بين جلاسى

أما هذا الذى أوقفت كيانه وجنانه وجوارحه على محبة ربه إنه شاعر الأولياء فهو يقول بعد أن سكن حب ربه قلبه :

عميت عيونى عن سواه وإنها أبدًا لغير جلاله لا تدمع
أذنى عن الأغيار صمت فهى فى كل الأمور إلى السوى لا تسمع
قلبى له بيت به فى رفعة والبيت بالسكان قدراً يُرفع

وهذا الحلاج الذى شغلته محبة الله عن كل ما سوى الله يقول مخاطبًا الله :

سكنت قلبي وفيه منك أسرار فلتهنك الدار بل فليهنك الجار
ما فيه غيرك من سر علمت به فانظر بعينك هل فى الدار ديار
وليلة الهجر إن طالت وإن قصرت فؤنسى أملى فيها وتذكار
إلى لراض بما يرضيك من تلفى يا قاتلى .. ولما تختار أختار

إنه يهنئ نفسه ويقدم لها التهنئة لأن محبة المولى قد سكنت قلبه واستقرت فى وجدانه وأن الجار والدار وكل ما حوله . . ومن حوله . . لا يرى فيه إلا الله . . الذى استحوذ على سره وأمره كله وأنه باع نفسه لله الذى يحبه ويهواه وأنه يختار ما يختاره له مولاه . . ويرضى بما يرضاه . . يرضى بالهجر لأن فى ليالى الهجر أنس بالذكرى . . وبالذكريات وبالآمال . . ويرضى بالقتل لأن القتل كان بتقدير المحبوب . . فكان فيه راحة المحب .

ولا عجب أن سمعنا الحلاج من أجل ذلك وبعد ذلك يشدو فيقول :

اقتلونى يا ثقاتى إن فى قتلى حياتى
ومماتى فى حياتى وحياتى فى مماتى
فاقتلونى واحرقونى بعظامى الفانيات
ثم مُرُّوا برفاتى فى القبور الدارسات
تجدوا سرّ حبيبى فى طوايا الباقيات

ولا مجال للعجب من قولة الحلاج السالفة لأنه يرى – كما يرى كل المحبين لله – أن محبة الله هى المعراج الموصل إلى الله وإلى معرفته فهو يقول : « لا سبيل إلى معرفة الله بالعلم ، بل إن الحب هو الطريق الموصل إليها إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهى هى التى تقربنا إلى الله تعالى ، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الإلهى فى كل لحظة » .

وعن قتل الروح وبذل النفس فى سبيل الحب كان يقول « ابن الفارض » وهو

سلطان العاشقين كما يلقبه الصوفية :

مالى سوى روحى وباذل نفسه ... فى حب من يهواه ليس بمسرف
فإذا رضيت بها فقد أسعفتنى ... يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

وعن الهوى وسلطانه على أهله . . أهل الله . . الأتقياء الأنقياء الأولياء يقول شاعر الأولياء :

الحب فيه حارت العقلاء ... هو قوة للمرتجى وضياء
وله على الأرواح أكبر عصمة ... وهو الأمان وللنفوس وقاء
فإذا عشقت الله عشقًا صادقًا ... كن بعد ذلك صاح كيف تشاء
فالحب يمنع أن تزيغ عن الهدى ... الحب ستر للفتى وغطاء
ما الحب إلا قوة روحية ... يرقى بها السارى وفيه دواء
الحب إن ملك النفوس أعزها ... والعاشقون بربهم علماء
فإذا اتقينا الله جل جلاله ... قُضيت حوائجنا وسال الماء
يا من تعرَّف بالمهيمن قلبه ... أبشر فإن الذكر فيه ضياء
ليس العطاء المال عند أولى النهى ... العلم عند الموقنين عطاء

وعن آفاق المحبين ومكانتهم العالية الذرى التى لا تبلغها أنظار عوام المؤمنين عن هؤلاء الخاصة يقول واحد منهم هو صاحب المقام المشهود القطب « إبراهيم الدسوقى » :

يقولون لى : ما العلم ، ما السر ، ما الذى ... هو الجوهر الغالى ، عن البحر خبّرنا
فقلت لهم هذى مطالع نورنا ... ومغربها فينا ، ومشرقها منّا
تركنا البحار الزاخرات وراءنا ... فمن أين يدرى الناس أنّى توجهنا ؟ !

وليست هذه المكانة لكل الناس إنما هى لخاصة الخاصة يختارهم الله على علم ويصطفيهم لمحبته كما يصطفى الرسل لرسالة . يقول الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء :

« إن لله تعالى شرابًا يسقيه فى الليل قلوب أحبائه ، فإذا شربوا طارت قلوبهم فى الملكوت الأعلى حبًّا لله تعالى وشوقًا إليه » .

شعراء الحب

الحب عاطفة تسكن الأفئدة وتعمر القلوب . .

ومن يحكم بأن القلب – أى قلب – لم يخفق بالحب ولم يعمر بهذه العاطفة فقد افترى . .

والحب يتسامى ويتصاعد . . حتى يصل إلى الذروة . . إلى حب الله .

وللشعراء قلوب حساسة مرهفة . . أناشيدهم تترجم عما يعتمل فى قلوبهم .

والشعراء الإلهيون ؛ شعراء المحبة الإلهية والعفو الإلهى والعقيدة الإلهية والشريعة وصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام . . هؤلاء الذين فزعوا إلى الله وإلى رحاب الله . . وفروا من دنياهم بمواجيدهم ومذاقاتهم إلى الملأ الأعلى . . إلى ساحة مولاهم وحضرة إلههم تلمح فى قصيدهم وميض النور وتحس همس الروح وخفق الوجدان . . وتسعد معهم . . وتكاد ترى بسمات الرضا ونسمات الوصل وآيات

المحبة وآنات الشوق ودلائل المِقَّة والود . .

أناشيدهم الشجية مترعة بفيض الرجاء وذوب النفس وخلجات الأفئدة . . صاعدة إلى العوالم العلوية تحمل إلى الساحة الإلهية رجوات ودعوات وابتهالات . . تلمح فى قصيدهم كل هذا . . وتحسه . . فينقلك قصيدهم إلى عوالمهم العلوية فتعيش معهم تحس . . وتحب . . وتصفو . . وتسمو . .

وفى ساحة الحب الإلهى أنشد كثيرون قديمًا وحديثًا . . فالإمام البوصيرى وعمر بن الفارض والإمام البرعى وغيرهم . . قد تسنموا الذروة فى هذا المجال . . لهم فيه قصائد وفرائد وخرائد . . طويلة النفَس ، عامرة غامرة . . حية نابضة عاشها ويعيشها وسيعيشها أحباب الله منشدين مرددين بألسنتهم وقلوبهم ما أفاء الله وأفاض على أولئك الهائمين الملهمين الواصلين المتصلين . .

وفى أيامنا هذه شعراء روحيون ملهمون بعضهم لم يرَ شعرهم النور ، إذ لم يدون قصيدهم إلى الآن فى ديوان ولم يسطر فى كتاب ، وإن كان قد سار على الألسنة ورُدد فى المحافل والمناسبات الدينية . . وتغنى به المنشدون والمداحون فى الإذاعة والتليفزيون .

وإنى بهذه المناسبة – ولهذه المناسبة – أهيب بالنقاد ورجال الأدب الدينى والإعلامى أن يسجلوا نتاج هؤلاء الملهمين الذى مازال يتردد فى الصدور وأن يعملوا على نشره مطبوعًا ويقدموه فى إطار رائع من بارع الإخراج وجميل التنسيق والتوضيب والضبط بالشكل والشرح والتحقيق والتعليق إنهم إن فعلوا ذلك – ولا أخالهم إلا فاعلين – يكونوا قد حفظوا للحقيقة وللتاريخ ولأدب العقيدة الدينية ما يحمل قصيد هؤلاء من الروائع والبدائع التى تشده النفس وتشد الحس . .

° ° °

وقد آثرت أن تكون مختاراتى هنا من هذا الشعر الروحى العقدى لبعض الشعراء

المعاصرين فحسب إلى هذا قصدت لأنني أرى – ولكل وجهة – أن تراثنا الروحي القديم في هذا المجال أشهر من أن يعرَّف . . أو يقدَّم . .

تعالوا بنا نعش لحظات روحية مع مختارات من ذوب نفس المحب الإلهي مداح البيت الشاعر عباس الديب من قصيدة له عنوانها « رجاء » يقول فيها :

أتيتك راجيًا في حسن ظني ... مقرًّا بالذي كان مني
فإني مذنب في غير شرك ... وأنت عليّ ذوي فضل ومنِّ
وما الأوزار لو بلغت جبالاً ... لتقطع مطمعي في العفو عني
ومالي في الحياة تليد خيرٍ ... يمحو زلّتي ويردُّ عني
فما قدمت من خيرٍ ، ولكن ... أتيتك راجيًا في حسن ظني

° ° °

ونفسي ما استقام لها طريق ... ولا رعت المشيب وحق سني
أُذكِّرها فتُظهر لي خضوعًا ... وأغفل لحظةً فتفرّ مني
وما قلت يا نفسي استقيمي ... على التقوى ، ترد إليك عني
وكم أحرقت دنياها بزهد ... فعادتني وعادت للتمني
فلا تفضح رُعُوناتي وإثمي ... فمنك البر والتقصير مني

° ° °

وجهلي والهوى قد أورداني ... وراء النفس في تيه التمني
فروحي إذ ترى المحراب تشدو ... فتأتي النفس في لهو تُغني
فإن حاسبت مالي غير حبي ... وإن عاقبت مَن سيرد عني
وإن ترحم فجوادٌ كريمٌ ... وإن تغفر فذو فضل ومنِّ
فإن شئت الحساب هلكت عدلاً ... وإن شئت الحنان عفوت عني

° ° °

وطه رحمة ، وأنا مسىء ... وفى رحماته أحسنت ظنّى
فمها كنتُ عمرى عبد سوء ... فخمر هواه فى كأسى وَدِنِّى
وشوق للحبيب لهيب قلبى ... وفى الأشواق ما يحلو التأنى
فلست أقول فى الأشواق زدنى ... ولا فى الصدق فى العشق امتحنى
فعجزى فى الهوى عين افتقارى ... إليك لكى تردّ النفس عنى

* * *

إلهى مهجتى كلفتْ بطَه ... أقدِّمها صداق الحب منى
وفى القربات ما عندى سواها ... فخذها قربة لرضاك عنى
فإنى إذ أرى أنوار طَه ... كأنى قد رأيتك ورىْ كأنى
فقل للنفس إذ بلغت مناها ... قتيل الحب نلت القرب منى
فكيف تحب محبوبى وتشقى ... مُحال بل لك الإحسان منى

* * *

إلهى بالمذلة بانكسارى ... بسترك حرمة الشيخ المسن
إلهى شِقوتى غلبت حيائى ... فلا تفضحن فى سوءات سنى
إلهى ، سيدى ثقتى رجائى ... وسعتَ المذنبين فلا تهنى
فإنى قد أتيت بغير زاد ... ويا غوثاه إن لم تعف عنى
وقد أحسنت بالرحمن ظنى ... فحقق لى الرجاء بحسن ظنى

* * *

ومن أغرورةٍ له بعنوان (تولى المصطفى أمرى) يقول فيها :

تولى المصطفى أمرى فكانت لحظة العمر
وأسلمنى إلى ربى فكانت ليلة القدر

وأشرق نوره سَحَراً فتم الوصل بالفجر
وأصبح سرّه[1] يسرى ليمحق شُبهة الغير

° ° °

وصرت أراه إذ ألقاه فى نجواه فى سرى
فألّفنى وعرّفنى وشرفنى بذا السر
وأسرى بى إلى الباب وألقى بى إلى البحر
فقومنى وكرمنى ونعمنى على فقرى

° ° °

وأدبنى وقربنى فغيبنى بلا سكر
وطهرنى وسارّنى فأسكرنى بلا خمر
وأنطقنى وما أدرى بما أدرى ولا أدرى
فأذكار وأسرار وأنوار بنا تسرى

° ° °

وأرضى قد غدت خضراء لما عشت فى الخضر
وبحرى يعكس الأسماء نوراً ساحه صدرى
وروحى تصحب الشهداء فُلكاً فى السما تجرى
فصرت أرى بنى الزهراء جُند البر والبحر

° ° °

عباد الله ما أحلاه يوم رضاه عن أمرى
ويا غوثاك كم أخشاك إن لوّحت بالهجر

---

(١) السرّ الذى يكون بين العبد وربه سرّ خفىّ لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده . وهو من عطاء الله لخاصته من المحبين

فما فى الدرب غير الحب فى صدق وفى طهر
فطهرُ القلب عين القرب فى سر وفى جهر

° ° °

أليس رضاك سرَّ هداك يوم نداك فى الذرّ
وأنت قسمت إذ أقسمت فى التنزيل بالفجر
وقد شرَّعت إذ شفَّعت بالمختار بالبدر
فكم أهواه يا الله فاجعل قُربه أجرى

° ° °

ويا عجبًا فكل الخلق من وحش إلى طير
تقول لكل من تلقى تولّى المصطفى أمرى
فذاك حجاب عزته ليرحم ضعفنا الفطرى
وتلك نهاية الإسراء تلك حقيقة الأمر[٢]

° ° °

وهذه صلوات روح للمرحوم الشاعر إبراهيم محمد نجا :

سموت بالروح إلى خالقى ... فى ليلة نشوى بجمر الضياء
ذابت بها الظلمة حتى غدت ... أسطورة طال عليها الفناء
ورقَّ فيها النور مسترسلاً ... كهمس نايٍ هائم فى الفضاء
مازلت أسمو والمنى فى يدى ... رفّافةً مثل النجوم الوضاء
حتى انتهت روحىَ بأشواقها ... لمنهل الغيب الذى فى السماء
كما انتهى للتبع بعد السرى ... فى البيد ركب الحائرين الظماء
فانتفضت فيها ضراعاتها ... وأطلقت فى الصمت هذا النداء :

(٢) للشاعر الملهم عباس الديب ديوان شعر أسماه (ما بين زمزم والصفا) وقد عرضه الأستاذ محمود كمال وقدم له بجريدة الأهرام فى ٦ / ٩ / ٧٨ .

يا منهل الغيب أسقنى قطرة ... من ذلك النور وهذا الصفاء
تجعل حياتى نغمًا شاديًا ... فى عالم يهفو إليه الرجاء
أحسه صوتًا عميق الصدى ... يهز أعماقى بسحر الدعاء
وصورة طال عليها المدى ... وما خبا فيها رفيف الرواء

* * *

يا منهل الغيب . . وفى غربة ... تُنبت فى عمرى هموم البقاء
غريبة بالحب فى عالم ... الحب فيه خدعة أو رياء
غريبة بالصمت . . من نايه ... يثير إلهامى أرق الحداء
أراه ظلاً سابحًا فى السنا ... كطيف عطر سابح فى الهواء
وأحتسيه خمرة عتقت ... فى الغيب يدرى سرَّها الأنبياء
والصمت سر هائم فى الدجى ... يهفو إلى الغيب ويبغى الخفاء
صاغت حياتى منه أسرارها ... فاستغرقت فى عزلة وانطواء
والصمت سحر هِمتُ فى جوه ... على جناحى : لهفة واشتهاء
والصمت بحر موجه نائم ... يحلم بالعودة من حيث جاء
عبرته وحدى على زورق ... يود لو يسرى لغير انتهاء
وعدت منه بشهىّ الرؤى ... وفى الرؤى رىّ ، وفيها غذاء
فالصمت عندى بالرؤى حافل ... وعند غيرى حافل بالهباء

* * *

وبقية هذه الصلوات فى ديوان الشاعر (أيام من عمرى) فى الصفحات من ١٠٧ - ١١٠ .

وللشاعر - عليه رحمة الله - ديوان أسماه « حياتى ظلال » نال به جائزة مجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٢ .

وهذه صبوة قدسية للشاعر المرحوم محمد هارون الحلو يقول فيها :

يا رب يا مولاى نورك فى الورى ... ملء الوجود يضىء كل حقيقة
أفرغ علينا منه ظل هداية ... ورعاية حتى نفوز بجنة
يارب وارحم عبد طاعتك الذى ... ماقرَّ إلا فى ضياء محبة
يارب صل على الشفيع محمدٍ ... بدر الهدى وضياء كل دُجُنَّة
من جاء بالقرآن فينا رحمةً ... وأتمَّ نعمة ربه بالسُّنة

ويقول فى ديوانه « مزامير » تحت عنوان « تباركت يا ذا الجلال » .

إلهى : تباركت ، هذا الوجود ... نشيد الخلائق منذ القدم
يرتل باسمك لحن الخلود ... على وترٍ عبقرىّ النغم

° ° °

تباركت يارب أنت الإله ... تسوق لنا الخير ملء اليدين
مواكب فيها جمال الحياة ... وأسرارها بهرت كل عين

° ° °

إلهى تباركت ياذا الجلال ... ويامانح الكون سرّ الحياة
نسبّح باسمك فى كل حال ... وتحفو لذكرك كل الجباه

° ° °

والشاعرة ملك عبد العزيز تقول فى ديوانها « أغانى الصبا » فى قصيدة تناجى بها ربها :

لكننى لما رفعتُ ناظرى
إلى السماء أجتلى ضياك
فقلت يارب إليك ألتجى

إليك أحمالى وضعفى الحزين
من ذا يفك الأسر عن مدامعى
سواك يا رحمن أنت يارحيم
ومن سواك كفه الحنون رحمة
ونوره الرفيق بلسم الجروح
ومن سواك يسمع النداء إذ أبوح
لا ستر بينا ، لا باب ، لا صروح
فجاء من خلقى وقال لى اهدئى
إنى قريب إذ دعوتنى قريب
فى كنى السلام والأمان والرضا
سكينة الأرواح ، هدأة القلوب
سمعتُه سمعتُه
أحسست كفه الحنون
مواجعى تذوب فى حنانه الرحيب
أنفاسه حولى غمائم الطيوب
تهدهد الأشجان تمسح الندوب
وظله الرطيب جنة النعيم
وبره الودود موئل الهضيم
وفُتح القلب وذابت أدمعى
دفاقة دفاقة علوية العبير
تجتاح أحزانى وتبذر الرضا
وعندما تلفتت عينى لأفقك البعيد

وجدت نورك الرطيب كالنّدى
إلى جوارى خلف عطفى هامسٌ
بلحنه الودود ناعم السنا
فقلت : ما أحلى الحنان
ما أجمل السلام باعث الرضا

° ° °

وهذه النجوى لشاعر الأولياء الشيخ على عقل :

وقفتُ على نجوى الإله جوانحى ... لذلك قلبى منزل كله ذكر
وأخليْت قلبى من مناجاة غيره ... فأصبح طودًا لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقًا . وأسكت هائمًا ... وأنطق إجلالا وما عاقنى سير
ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى ... وفى مشيتى علم وفىّ وقفتى سر

ويقول :

تركت جميع خلق الله دونى ... شُغلت عن الخلائق باشتياقى
إذا ماعشت لا أنسى إلهى ... به أسمو من الأخرى المراقى
أُحب الله عن أدب وصدق ... ولا أرضى سوى التقوى خلاقى
يعز علىّ ترك الحب عندى ... ولو بلغت بى الروح التراقى

ثُم هو يدعو سقاة الحب أن ينقلوا عنه للناس المحبة الممزوجة بالخوف والرجاء فيقول :

ألا يا ساقى العشاق مهلا ... تعالى املأ كئوسك من حِقاقى
غرامى قد مزجت به رجائى ... على خوف فمن خوفى مذاقى

وروحى أدركت معنى التجلى فنه أرى اصطباحى واغتباقى

ويتمسك شاعر الأولياء بالمحبة ، ويعلل تمسكه بها بأن الله هو الباقى بعد فناء خلقه ، فهو الذى يستحق وحده أن يكون محبوبًا فيقول :

ومن عرف المحبة عن يقين محال أن يميل إلى فراق
وكيف أحب غير الله يوما وليس سواه فى الأكوان باق

ويقول :

وكيف أرضى بغير الله متجهًا والكل والجزء والأحشاء تعبده
إذا سهرت فما أسهرت عن ملل لكنه الحب يدعونى وأشهده .

ونختتم هذه الجولة مع شعراء الحب والمحبة بهذه الأبيات لشاعر الأحباب عباس الديب : من ديوان شعره « ما بين زمزم والصفا » :

أحباب طه وآل البيت وا طربا فالنور من طلعة المختار ما غربا
عشنا على الشوق عشاقًا مدامعنا تهمى حنينًا إلى من شرَّف الأربا
حتى إذا دارت الكاسات فى سحر تسقى عبيد الرضا حيًا بما شربا
فالحمد لله فضل الله ساحتنا والقلب فى حيه ثبت وما اضطربا
والحب أغنية صلّت بمدمعنا حتى شهدنا فقال القلب وا طربا

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

العدد القادم

الأقصر مجمع الحضارات
بسام الشماع